اسماعيل فهد اسماعيل

Tele: @Arab_books

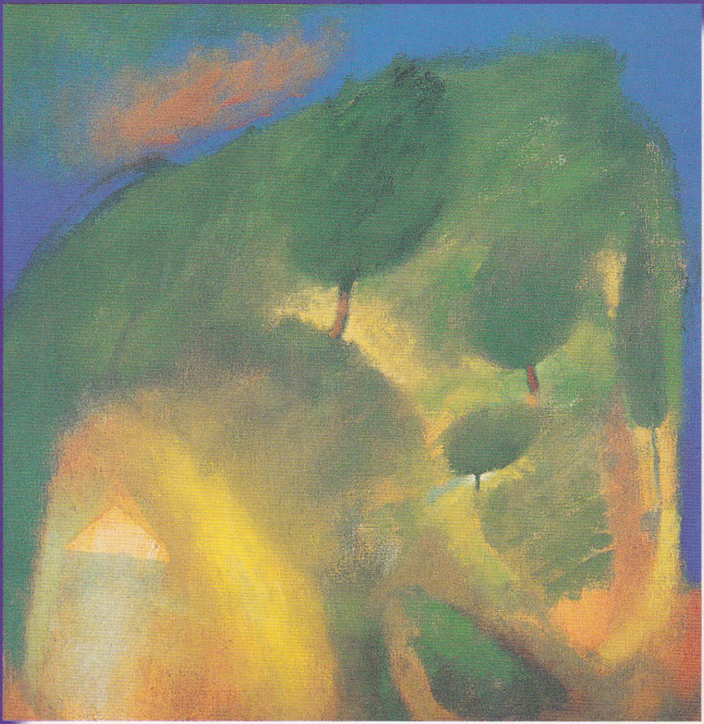

كانت السماء زرقاء

رواية

كانت السماء زرقاء

اسماعيل فهد اسماعيل

كانت السماء زرقاء

الرواية
المدى

منشورات

٢٨		الرواية

اسم المؤلف : اسماعيل فهد اسماعيل
عنوان الكتاب : كانت السماء زرقاء

Auther : Ismaiil Fahd Ismaiil
Title : The Sky has been Blue

الغلاف : تصميم وخطوط محمد سعيد الصكار
لوحة الغلاف : سعد علي
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الثالثة : ١٩٩٦

Al Mada : Publishing Company
Third Published in 1996

الحقوق محفوظة

Copyright © Al mada

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No Parts of this Publication may be reproduced, stored in aretrieval system , or transmited in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or other wise, without prior permission in writing of the publisher.

الإهـــداء

إلى الإنسانة التي وضعت قدمي على طريق الخير
إلى زوجتي... «أم فهد»

اسماعيل

ملاحظة هامة

كتبت هذه الرواية عام ١٩٦٥ ، بعد أن تعرضت قوى الخير للإبادة .
أما وقد عرف المسار فمعذرة يا جواد السحب الداكنة .

اسماعيل

تقديم الكتاب

بقلم: صلاح عبد الصبور

كتبت منذ سنوات عشر مقالات بعنوان « البحث عن القرن العشرين » وكان دافعي إلى كتابتها قراءتي آنئذ لنعي الروائي الفرنسي « بيير بنوا » في الصحف الفرنسية ، واستطراد الصحيفة الناعية في ذلك الوقت ، واظنها « الليتر فرانسيز » إلى الإشارة إلى أن نجمين قد ظهرا في فن الرواية في وقت واحد تقريباً في فرنسا ، أما أولهما فهو « مارسيل بروست » صاحب رواية « البحث عن الزمن الضائع » وثانيهما « بيير بنوا » صاحب رواية « الاطلنطيد » (وقد تُرجمت هذه الرواية إلى العربية منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً) .

أما أولهما « بروست » فقد عاش ومات ولم يكد يفطن إليه الا القليل من القراء ، بينما حظي « بييربنوا » في مطالع حياته بالمجد الباذخ . ولكن كل يوم مضى بعد بزوغ النجمين كان يضيف إلى « بروست » قارئاً جديداً ، ويسلب « بيير بنوا » لقاء ذلك قارئاً كان يحبه ويعرفه .

واذكر أنني كتبت عندئذ . . .

أن قصة الاطلنطيد قصة خيالية ، احدى قصص الحب والهوى الجارف ، التي يذهب فيها الخيال إلى أوسع مداه .

تدور حوادثها في أرض لا يعرفها البشر ، مكتوبة بأسلوب أنيق ساحر ، ولكنه في الوقت ذاته بسيط ، وليست لها جذور ممدودة في المجتمع لأن قارة الاطلنطيد مكان ساحر مهجور من العالم .

Tele: @Arab_books

وهي رواية تخضع للأسس التقليدية لبناء القصة .

الشخصيات ، والحبكة ، ثم الحل ، وتصف الأشخاص من ظاهرهم وصفاً جميلاً جذاباً .

ولكن . . من قال أن الرواية أصبحت الآن تخضع للأسس التقليدية ؟

أن رواية القرن العشرين تختلف عن رواية القرن التاسع عشر اختلافاً بيناً في بنائها الفني ، وفي تناولها الروائي على حد سواء .

نعم ... أن شقة الخلاف لواسعة بين الرواية التقليدية والرواية المعاصرة ، رغم اننا في أدبنا العربي لا نستطيع حتى الآن أن نقول ان لنا طموحاً إلى تجاوز الآفاق التقليدية إلى آفاق جديدة ، فما زال معظم أدبنا الروائي ينبع من منطق « الحدوتة » وهو في سبيل ذلك يعنى بوصف ظاهر الأشخاص... ملامحهم وسيماهم ، ويهتم بما يجري فوق سطح جبل الجليد لا بما يعتمل في أعماقه الراسخة في قاع البحر .

ومنذ عشر سنوات كان الأمر أوضح .

ولكني في الأعوام الأخيرة أسجل بضعة ظواهر لعل أولها هذا التحول الكبير في منهج الروائي العظيم نجيب محفوظ .

وثانيهما قراءتي لثلاثة أعمال روائية جديدة أود أن أشير إليها كاشارات إلى أدب القرن العشرين .

وثالثهما ما يعتمل في صدور الروائيين والقصاص الجدد من أزمات يعبرون عنها أحياناً بالإبداع وأحياناً أخرى بالسخط والجدل العنيف .

أما الأعمال الثلاثة التي أشرت إليها فهي رواية « رجال في الشمس » لغسان كنفاني ، و« سداسية الأيام الستة » لأميل حبيبي ، ثم هذه الرواية الصغيرة الجديدة لاسماعيل فهد اسماعيل .

واسماعيل فهد اسماعيل قد يبدو اسماً جديداً على كثير من القراء العرب ، وقد كان جديداً بالنسبة لي حتى لقيته . اذ زارني قادماً من الكويت إلى القاهرة في عمل يتصل بالتربية والتعليم اللذين يمارسهما ، وقضينا ساعة نثرثر ، ثم دفع إلي بعملين من أعماله . مجموعة قصصية ، ورواية لاقرأهما ، وأحدثه عن رأيي فيهما .

Tele: @Arab_books

وكانت الرواية مفاجأة كبيرة لي . فهذه رواية جديدة كما أتصور . رواية القرن العشرين . قادمة من أقصى المشرق العربي ، حيث لا تقاليد لفن الرواية ، وحيث مازالت الحياة تحتفظ للشعر بأكبر مكان .

ولم يكن سر دهشتي هو ذلك فحسب بل لعل ذلك لم يدهشني إلا بعد أن أدهشتني الرواية ذاتها ببنائها الفني . المعاصر المحكم ، وبمقدار اللوعة والحب والعنف والقسوة والفكر المتغلغل كله في ثناياها .

ان الرواية الحديثة بناء فني عسير . فقد تكون الرواية التقليدية واضحة الحدود سهلة المعالم .

فما على الروائي إلا أن يبدأ بتقديم شخصياته ، ثم يتأزم بينها موقف من المواقف ، لكي ينحل بعد ذلك حلاً ينبع من باطن الرواية .

أما الرواية الحديثة فهي مغامرة دائمة ، واكتشاف متجدد ، وبحث لا ينقطع عن المنهج والأسلوب .

ان الشخصية لا تولد ناضجة ، ولكنها تولد في كل لحظة ، وتتكشف على مدار صفحات الرواية ، وتتصارع مع باطنها ، لتزداد غنى تضفيه على العمل الفني .

ورواية « كانت السماء زرقاء » لاسماعيل فهد اسماعيل رواية مفصلة ونافذة الأثر في الوقت ذاته .

انهما رحلتان يخوضهما البطل نحو عمق الحياة . رحلتان مشوبتان بالمعاناة والتوسخ والعذاب .

ولكنهما رحلتان ضروريتان . فالبطل هارب ، لا ندري أيهرب من قدره أو من الطين الذي ساخت فيه قدماه منذ أن وطئتا أرض الحياة .

وهو هارب إلى الفراغ المجهول . وهو ليس بطلا رومانتيكياً يحمل أحلاماً ، ويبشر بالخير والمحبة ويتمتع بهذا الخداع الذي يدلس به البعض على نفوسهم حين يزعمون أن العالم يحتويهم لأنهم ملائكة في هيئة بشر ، وشموع منيرة تحرق نفسها لتضيء للآخرين ، بل أن لهذا البطل انحداراته المسنة ، أو على الأصح انحداراته الانسانية ، وربما كان الصراع الذي يدور في باطنه هو صراع بين نفسه ونفسه . . .

بين النفس الغارقة في حمأة التجربة والنفس المتطلعة للبراءة . . . بين النفس المثقلة بالاغلال بمجرد أن وطئت الأرض ، وبين النفس الطامحة إلى الحرية الأثيرية ، ولكن البطل يعلم من خلال هذه الرحلة أن عليه أن يلامس الأرض ، وأن يخرج من زحمة الفوضى نظاماً ، ومن كثيف الظلام بصيصاً من نور .

يحمل بطلنا ماضيه كما يحمل زميله الهارب . . . أحد الجلادين والضحايا في الوقت ذاته . . صرعى الانقلابات المقنعة بالشعارات الثورية التي اجتاحت بعض اجزاء وطننا العربي . . قاتل ومقتول .

انه يخوض رحلة الهرب هو الآخر ، ولكن الرصاصة تستقر في مؤخرته فتقعده ليعاني سكرات الموت بعد أن أذاقها للآخرين .

وهو مثل ماضي البطل تماماً . . . ملوث يطمح إلى النظافة . خادع ومخدوع . الدم يلوث كلا منهما . أما هذا الهارب فهو ملوث بدم المجتمع ، بينما تلوث بطلنا بدم البراءة ذاتها .

من الصعب حقاً أن نلخص كثيراً من الأعمال الفنية ، وبخاصة اذا كانت قد اجتازت رحلة التقليدية إلى مرحلة المعاصرة . وفي روايتنا هذه تستحكم الصعوبة ، فالخطان أو الحبلان مفتولان بحذق وإحكام بنفس درجة الحذق والاحكام التي نجدها في الانتقالات بين الماضي والحاضر . . . بين ما يعيشه البطل في حياته وما يعيشه في تذكاراته . هذه النقلات التي تخضع للابهام كما تخضع للتصميم ، والتي تستوقفنا في أدب فرجينيا وولف ووليم فولكنر .

ان الذكرى هي البعد الرابع الذي أضافه القرن العشرين إلى الرواية . فلقد كانت هناك ثلاثة أبعاد للرواية .

أولهما الزمن الذي تدور فيه . وثانيهما احساس الرواية بالمجتمع والتاريخ . وثالثهما الرؤية الواسعة المستعرضة التي تتناول نماذج عدة من الأشخاص .

ونستطيع أن نجد شواهد ذلك على الترتيب في أعمال تولستوي وديكنز وبلزاك .

أما البعد الرابع وهو الذكرى . . . هو العودة بعمق إلى ماضي الشخصيات أو ما

طوتـه من صفحات حياتها في أعماق ضميرها ، وظنت أن النسيان قد سحب عليه ذيله . فاذا به يبعث إثر موقف ما أو حادثة ما ، ويعود إلى ذهن البطل ووجدانه بكل قوته وعرامته .

هذا البعد هو الذي اكتسبته الرواية من كشوف علم النفس ، ومن قوانين التداعي .

ولكنه ليس كسباً سهلاً مباحاً ، بل لعله من أصعب الأمور أن يحكم الكاتب منطق التداعي .

وفي رواية « كانت السماء زرقاء » يتبدى اقتدار الكاتب الذي يوشك أن يكون عفوياً على استغلال منطق التداعي ، وعلى جدل حبلي الماضي والحاضر في حبل واحد .

وأخيراً فإن هذه الرواية من أهم الروايات التي صدرت في أدبنا العربي حتى الآن .

وهي لن تمتع القارىء المتعجل كثيراً ، ولكنها بلا شك ستزعج القارىء المخلص الرصين وتدفعه إلى التفكير ، بل وتصبح ثقلاً على ضميره ، يظل هذا الثقل حتى يستطيع شرقنا العربي أن يتجاوز آفاقه المعتمة إلى آفاق أكثر نوراً واشراقاً وحرية ونظافة .

إن الكاتب الذي كان يكتب ليمتع الناس عليه الآن أن يكتب ليهزهم ويزعجهم .

لقد تعودنا أن يكتب الكاتب للناس ، ثم حاول بعض الكتاب أن يكتبوا مع الناس . فلنجرب الآن أن نكتب ضدهم .

وهذه الرواية هي احدى علائم التحول الكبيرة الواضحة .

صلاح عبد الصبور

مايو ـ ١٩٧٠

القسم الأول

اليوم الأول

Tele: @Arab_books

١

قفز خطوة إلى الوراء . عجب من نفسه ، تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها جسده يتصرف دون ايعاز منه . قفزته رغم قصرها وضعته إلى جانب أسلاك شائكة .

ـ اركض!

طرقت أذنه بحشرجة غريبة . «من يأمرني!» وخيل إليه أنه في حالة حرب معينة . رغب التعرف على صاحب الصوت الآمر وانتابه ذهول .

هو لا يعي ما يسمع ، ويكاد لا يعي ما يدور في مخيلته ، كل الاتجاهات تبعده عن الموت ، إلا اتجاهاً واحداً . . . الوراء .

جميع قواه تشده إلى الهرب إلا قوة واحدة مجهولة تشده رغم ارادته ناحية الأسلاك .

ـ أركض!

«عليهم اللعنة!» والتفت إلى الخلف . لم تقع عيناه على مصدر الصوت . البحة الغريبة للصوت رمته في متاهات الذهول .

دنا من الأسلاك . الظلام ليس حالكاً إلى درجة تجعل الرؤية معها متعذرة ، بيد أن بعض الأعشاب المتسلقة جعلتها كذلك .

اقترب أكثر ، فتملكته الدهشة . أصوات طلقات نارية تمزق أذنيه . داخله احساس بأنه يعيش عالماً اسطورياً ، وتفتقت على فمه ابتسامة غبية .

جسد ضخم معلق بصورة محكمة على الأسلاك . أحد الحذائين الكبيرين قبالة وجهه . أما الثاني فكان مشنوقاً من الناحية الأخرى .

الصورة التي علق فيها الجسد ذكرته بقاذفات القنابل الانكليزية أيام الحرب .

ـ أنا مصاب . . لا . . لا فائدة من هربي . .

لم يجب على تساؤل الصوت المبحوح . . «أنا لا أعرفه!» . . ولا أي انسان . .

ابتعد برأسه عن الجسد المعلق وطفق يحدد المكان الذي تصدر عنه الطلقات .

ـ اقفز الـ . . الأسلاك!

تملكه الغضب «هو يأمرني!!» ود لو يبصق . . «لست منكم» .

ـ أقفز!

ما عاد يستطيع الصبر ولأول مرة قال بصوت مسموع :

ـ اخرس!

غمرته راحة ، وحاول جمع شتات أفكاره . هو ما عاد يذكر كيف وعلام وصل إلى هنا . الذهول يقعد رأسه عن الأخذ بذيول تفكير منطقي محدد .

الدوار يعصف برأسه ، وأصوات متنافرة تلتقطها أذناه في الثواني التي يكف فيها اطلاق النار . أرهف أذنيه .

. . . عشرون منهم في الزورق . . نوتي الزورق أعترف . . هرب منهم ثلاثة . . .

«إذا . . أنا أحد الثلاثة!»

وبدأت خيالات معينة تتداعى على مخيلته .

ـ لماذا أنت . . أنت واقف ؟!

الصوت المبحوح يطالبه بالهرب ، وبلهجة متوسلة هذه المرة .

ـ سيلقون عليك القبض . . حاول العثور على صاحبنا الثالث . . .

ـ عليك اللعنة! . . دعني أفكر .

ـ أنا أيضاً ضابط . . لعلي أصغرك رتبة . . لكنه أمر . . أهرب!

« لست ضابطاً » والتفت إلى الخلف ليصب جام غضبه .

ـ ولا انساناً!

الأصوات المتنافرة تقترب . « أريد أن أحدد نفسي لنفسي . . ما بالي! . . هم لا يدعونني أفعل! »

ـ أركض!

تجاهل الصوت المبحوح « أنا بحاجة لمكان آخر . . . » واحتواه الظلام .

Tele: @Arab_books

٢

أحس بالأشواق تأخذ بشبابه ، «أركض» لا زالت تدوي في أذنيه . هو يركض ، حياته كلها سلسلة من الركض المتواصل . هو هارب . هارب من كل شيء حتى من نفسه . قبل ساعات حاول عبور الحدود بمعية أكثر من عشرين شخصاً .

نوتي الزورق أخذ من كل منهم خمسة دنانير لقاء ايصالهم إلى حيث لا تطالهم أيدي حرس الحدود .

كانت الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل عندما وقعت الحادثة . النوتي قال :

ـ سأعبر بكم شط العرب قبل الفجر بقليل . سآخذ النقود مقدماً ، وأنزلكم وراء مصافي النفط في عبادان .

بالأمس كان قد اتصل بأحد أصدقائه القدامى من سكان ناحية السيبة . أخبره بأنه قرر اجتياز الحدود العراقية إلى ايران . صاحبه ضحك .

ـ هل اطاحت بك الثورة أيضاً ؟!

ـ لست سياسياً . أنا هارب فقط .

ـ ممن ؟!

ـ من كل شيء .

ولم يتحدث أكثر . الثاني لم يناقشه قراره . قاده إلى منزل يقبع وسط

البساتين . هم ساروا أكثر من ساعة وسط غابات النخيل بمحاذاة نهر السيبة . . غرباً .

هناك على مشارف الصحراء التقاهم وجه بلحية فضية .

ـ هو أيضاً!!

قال النوتي صاحب الوجه الملتحي . هز الصديق رأسه موافقاً .

ـ بخمسة دنانير!

هز هذا رأسه . صديقه ودعه دون أن يبتسم .

اليد الخشنة قادته حيث كوخ كبير إلى جانب النهر ، ربط عن قرب منه زورق .

●●

« لست منهم! »

تمتم بدهشة عندما وقعت عيناه على الوجوه التي يربو عددها على العشرين .

كانوا ينحشرون داخل الكوخ . جلس بصمت لم يدم طويلاً .

ـ هارب أيضاً ؟

سأله وجه شاب إلى جانبه .

ـ . . . .

ـ ماذا فعلت ؟ . . ما هو منصبك ؟

ـ . . .

ضاق بالأسئلة . ترك حقيبته وخرج مُقتعداً الأرض بمقابلة الزورق .

الشمس تجنح للمغيب ، وصوت النوتي يأتيه عبر عشرة أمتار :

ـ لعلك ضقت من الكوخ ؟

ـ . . .

وعاد يستطرد :

ـ بعضهم يحتلونه منذ أمس . . سنعبر الحدود هذه الليلة .

« وهل سيسعنا هذا الزورق الصغير ؟! » .

●●

تباطأ في سيره « كيف ومتى اتخذت قرار الهرب ؟ »

منذ ساعة غادر الجسد المعلق على الأسلاك . النوتي قال بينما كانت الأجساد المغبرة تحاول حشر نفسها في الزورق الصغير :

ـ سنستغرق نصف ساعة للخروج من نهر السيبة . عليكم التزام الصمت . قبل وصولنا مركز شرطة الناحية سأنزلكم وأدلكم على طريق بين النخيل توصلكم إلى ضفة شط العرب . ستصلون قبلي . وبعد التفتيش المعتاد أتوجه إليكم حيث أقلكم عبر الشط .

بعض الرجال تنفس الصعداء ، والبعض الآخر قبع بصمت .

●●

داخله احساس بأنه كان قد نسي شيئاً ما ، ما هو ؟! « ثم سارع لطرد السؤال عن مخيلته . لم تعد لديه القدرة على تركيز أفكاره « لم أنس شيئاً » .

ضوء الفجر يتسلل إليه عبر سعف النخيل ، صافحت وجهه رطوبة لذيذة ، وخيل إليه أنه سمع صوت ارتطام ماء بشيء ما .

اعترضه مرتفع ترابي ، فتباطأ في سيره وهو يرتقيه .

الزورق تباطأ أيضاً ، بل كف عن السير عندما تدفقت أصوات آمرة من على جانبي النهر . كانوا قد بدأوا السير منذ دقائق فقط .

ـ أحدهم وشى بنا! . . والله ضعت!!

ثم تهالك النوتي ، وانطلقت رصاصة تمزق سكون الفزع :

سادت لحظات تردد ، ثم قفز أحدهم إلى الماء . اختل توازن الزورق . قفز الثاني . انطلق الرصاص كالمطر .

« كان في يدي . . . »

نفض رأسه بقوة .

« اذكر أني أفلته على جرف الطين بعدما قفزت! » .

وفجأة تذكر ، فأطلق زفرة ارتياح .

« ركضنا واعترضتنا الأسلاك الشائكة . الضابط الضخم أصيب أثناء محاولته لاجتياز الأسلاك ، فبقي معلقاً عليها . . إلا فمه الحقير ظل يأمرني بالهرب ، بيد أني تسمرت . . لماذا ؟ . . أهو الخوف ؟ . »

مرتفع طيني صغير يعترض طريقه . « أم المفاجأة ؟ » استعمل يديه .

« أنا أتسلق! » وأمسك بالطين الجاف .

« كلهم سياسيون هاربون . . » الا هو . قبل أيام ثلاثة حدثت ثورة . ثورة في الخريف أطاحت بنظام حكم معين .

اشتد وقع اصطدام الماء بشيء ما على أذنيه عندما أتم ارتقاء المرتفع ، ثم أكتشف بأن الماء عند قدميه . « شط العرب! » واقتعد الأرض فأحس بألم الانهاك يكاد يتسرب من أظافره عبر أصابع قدميه . « غريب! . . حتى في هربي اللامحدد الاتجاه تجرني قوى مجهولة إلى الخارج! » وابتسم .

عليه أن يمنح نفسه قسطاً من الراحة . هو عراقي ، وهذه الأرض كذلك ، بطاقة انتمائه إليها في جيبه . « لست سياسياً » ، سيريها لأحدهم لو داخلهم الشك بأمره . هم لن يعرفوا بأنه حاول اجتياز الحدود .

جال بعينيه تجاه الأضواء البعيدة . « عبادان! » ، ثم نقل عينيه عن الأضواء الحمراء التي تعلو خزانات النفط إلى ضوء أزرق بعيد ، وأحس انفتاحاً نفسياً . « أنا غبي! »

● ●

كان ثوبها أزرق ضيقاً يبرز مفاتن صدرها وفخذيها * .

حدث ذلك قبل يومين . الليل في أوله والساعة حوالي السابعة . هو جالس على أريكة خشبية ملقاة إلى جانب الشارع عند مفترق الطريق التي توصل إلى سوق البصرة القديم ، والأخرى التي تتبعه ناحية الزبير . كان

* من أجل زيادة الايضاح عملنا على أن يكتب التداعي الذي يرد ذهن البطل والتداعي الذي يرد عن طريقه بحروف بارزة .

صديق قد دعاه للجلوس .

ـ أنت هنا!

سأله الصديق بدهشة .

ـ جئت أنعم بفترة من الاستجمام .

ضحك الأول . ولم يسأله أكثر . ود لو نهض بعد جلوسه مباشرة . بيت قريب له على بعد خطوات . هو لا يريد أن يُري وجهه لأي من أقربائه . هم يعرفون ما آلت إليه حاله ، لكنه على ثقة بأن مئات الأسئلة ستنهال عليه . وفجأة أحس بشيء يلكزه .

ـ انظر!

صاحبه قال . ثوب أزرق مرق أمامه . القدمان الصغيرتان أعجبتاه .

ـ هي حيتك!

لكنه لم يرد ، فاستطرد الآخر :

ـ أنت لم ترها!

رفع عينيه إلى قفاها . « لعلها هي! » . وانتابته رجفة صغيرة . وتداعت أفكاره وقتها ترسم وجهها .

كانت تضحك كثيراً في آخر لقاء لهما . زوجته لم تكن معه . لهذا السبب أعطى نفسه حرية أبداء أعجابه بها . أدرك بأن ميلها بدأ يزداد نحوه .

الأكتاف المدورة توقفت على بعد قريب ، ثم استدارت .

« هي! . . لكن وجهها يحمل انطباعاً غاضباً! » . . ظنها تشير إليه .

ـ تدعوك!

تردد برهة ، نهض بعدها . « هي! . . وجهها يحمل انطباعاً غاضباً! »

● ●

دار بعينيه في الأرجاء الواسعة عبر الماء ، وعبثت أصابعه بالطين الجاف .

« أنا غبي! »

هي لم تمد له يدها عندما اقترب منها .

أهلاً .

قالت فقط . لم يكن من عادتها أن تفعل ذلك . . « مابها ؟ » . . داهمه - وقتها - احساس بالحقد .

« لا بد أني فقدت امتيازات كثيرة نتيجة الحالة التي ألت إليها! » ازدادت وطأة الحقد عليه . نظر إلى يدها المدلاة . « لماذا ؟ » هي كانت تميل إليه . « إلا أني اتخذت قراراً لنفسي!! » . قرر أن يشعرها بأنها أمام شخص يختلف عما كان عليه أمس .

« مادامت . . . فلأكن . . » لم يرفع عينيه عن يدها وقال :

- لا بد أني فقدت امتيازات كثيرة نتيجة الحال التي ألت إليها! كلامه صادف ضيقاً من جانبها ، وتمتمت :

- هذه صراحة في غير محلها!

ها هو يفقد احترامها ، ولكن لا بأس ليحاربها بسلاحها .

- لم لا تقولين وقاحة ؟

نظر في عينيها . خيل إليه أنها ستبصق في وجهه .

- هذه هي الوقاحة!!

داهمه شعور بأنه حقير ، لم ير بداً من القول :

- آسف!

سادت فترة صمت قالت بعدها :

- مابك ؟

- أنت تعرفين .

- لماذا فعلت ما فعلت ؟!

- مع من ؟

- مع زوجتك!

- حررت نفسي من عبوديتها .

صمتت لثوان .

ابتسمت ابتسامة أشعرته بأنه طفل .

ـ وهل حدث كل هذا بسبب زوجتك ؟

هو يكره أن يسأل ويدفع للإجابة دفعاً . منذ سنتين كان قد قرر قطع علاقته بزوجته ، وأرجأ التنفيذ لحين بلوغ طفلته سن السابعة . هو لا يريد أن يحرم أطفاله حنان الأم . « وهل عرفت معنى للحنان! » بيد أنه انفجر قبل ليلتين وطلقها للمرة الأخيرة . قبل أعوام ثلاثة وصل سوء التفاهم بينهما إلى حد لم يعد معه يستطيع احتمالها .

ـ « أنت طالق! »

قال لها وغادر المنزل . زوجته أقامت عليه دعوى شرعية . الرجل المسؤول قال له وهو يحاول استرضاء الزوجة :

ـ « أمامك فرصة أخيرة للعودة إلى حياتك الزوجية . زوجتك لها كل الحق برفض العودة إليك ، ولولا اعترافها بأنك كنت مخموراً لما سمح لك الدين بالرجوع عن طلاقك . »

هو لا يتعاطى شرب الخمر . شل لسانه أمام الرجل المسؤول ، وفي داخله تعتمل ثورة .

رغب القول :

ـ « كيف تتوفر القدرة السحرية لكلمات معدودة للقضاء على علاقة زوجية ؟! . ألا يجب أن تتوفر الأسباب الكفيلة باقناع الطرفين للابتعاد عن بعضهما ، في وقت لا تأثير لغضب عليهما فيه . »

أحس بفمه يمتلىء فبصق ، وعدل من وضع جلسته . الطين الجاف أخذ يبعث خدراً كريهاً في عجيزته .

عاد اللون الأزرق يغرقه .

ـ أنا أخاطبك . أنت لا تجيبني! . . كل هذا حدث بسبب زوجتك ؟!

سيجيبها ، وماذا أمامه سوى الاجابة :

ـ بسببها . . وبسبب جميع الآخرين .

وطرأت له فكرة شيطانية .

« أنا فقدت كل شيء . . حتى هذه ، ولكن . . »

فقال :

ـ وبسببك أنت .

ابتعدت عنه نصف خطوة رغم كونها ماسكة ذراعه ، وبانت الدهشة في عينيها .

ـ بسببي أنا! . . ما صلتي بالأمر ؟!

أعد نفسه لاطلاق كذبة كبيرة . . « ولم لاما دمت سأسافر غداً إلى ايران . » وتمتم :

ـ ميلي نحوك .

تطلع إليها . خيل إليه أن الدهشة زايلت عينيها ، وصارت تنظر إليه بوله محبب .

« اللعنة! » ها هو بدأ يستجيب . المشاعر الانسانية لا زالت تمارس سلطتها عليه .

خنق تفتحه . قال واحساس بحب الهدم يتملكه :

ـ ميلي نحوك . . الذي استطيع تسميته حباً . . .

ـ أرجوك!

قاطعته بتوسل غريب . أمسك لسانه لثوان ، ثم استطرد :

ـ ربما كان أحد الأسباب . . بل السبب الرئيسي الذي دفعني لطلاقها .

أذناه التقطتا كلماته الأخيرة كارهة . وغمغم . . « جبان! » هو يكذب . يعلم جيداً بأن لا صلة لهذه بما حدث .

ـ لكني لم أكن أعلم بما حدث!!

احتجت هي برقة ، والتزم هو جانب الصمت .

ـ رغم أني حدسته .

ملأه شعور سارق « أنا أسرقها . . أسرق شيئاً انسانياً! »

ـ سأذهب .

فتمسكت بيده .

ـ أرجوك!

ود لو يصرخ «اتركيني» . كبح جماح اندفاعه .

ـ اتركيني!

تجاهلت كلمته . سمعها تقول :

ـ دعني أدافع عن نفسي على الأقل . . لم أكن أدرك بأن لي مثل هذه القدرة التي أجهلها على تصرفاتك!

«أنا أسرق شيئاً انسانياً!»

وأفلت يده .

بلغ الخدر بأليتيه حداً لم يعد معه يستطيع الصبر أكثر . زحف قليلاً إلى الأمام ، ثم تحامل على نفسه ونهض .

●●

Tele: @Arab_books

٣

ضرب عجيزته بظاهر كفه محاولاً نفض التراب عن ثيابه ، ثم نظر إلى يديه ، وتذكر الحقيبة . «هي زرقاء أيضاً .» أمس اشترى زوجين من الثياب الداخلية . عليه أن يستعد لسنوات مقبلة . بعدها عاد واشترى فرشاة أسنان .

كان قد ترك عادة تنظيف الأسنان بالفرشاة . «لماذا أعود لتنظيفها ؟» وسرعان ما تصاعد إليه الجواب من داخله : «لعلني فعلت كي اشعر نفسي بأنني موجود .» ثم أستسخف أجابته بابتسامة ازدراء . نفض رأسه بقوة ونظر إلى ساعته . «منذ متى توقفت ؟» رفع عينيه إلى الشمس . كانت تنهض عن الأفق . «أظنها السابعة!»

تأكد من موضع قدميه قبل نزوله من المرتفع . «ترى هل أوفق للعثور على حقيبتي ثانية!» وحانت منه التفاتة إلى خلف «الشمس تشرق من ايران!» وابتسم بغباء .

●●

صاحبه ابتسم ـ أيضاً ـ عندما ألقى هذا بجسده على الأريكة الخشبية .

ـ أظنك تركتها بالقوة ؟

لم يرفع عينيه عن امتداد الطريق الممتدة صوب الزبير . صاحبه لا يعدو كونه أحد الأشياء التي تربطه بماضيه . «عليك اللعنة!» ولم يجب سؤاله . بيد أن كلمة رمته ضمن استفزاز هز جميع أجزاء جسده .

ـ ها هي قادمة!

بيتها قريب من المقهى . نكس رأسه بصمت ، ومرت القدمان الصغيرتان بصمت .

لم يتنفس الصعداء . أحس بنفسه يسلب نفسه حق بناء ذاتها من جديد .

ـ هل هي قريبتك ؟

ـ لا .

كذب للمرة الثانية ، وانحشر في اذنيه سؤال جديد :

ـ أظنها تحبك ؟

ـ تكرهني .

ولفهما الصمت . عليه أن ينأى بخيالاته عن الماضي . «أنا مجرم» والتفت إلى من بجانبه :

ـ أنا مجرم .

ـ ماذا ؟

فأجاب ساخراً :

ـ كلهم يقولون ذلك .

ـ «اش» . . ها هي قادمة من جديد!

رفع عينيه . اللون الأزرق يمتلك الطريق . وقفت إلى جانبه . الأرض تميد تحت أريكته . «أي شيطان دخلها!!»

ـ تعال .

لم يتزحزح عن مجلسه .

ـ هي تدعوك .

قال لشريكه في الأريكة بلهجة ساخرة .

بأن الغضب جلياً في عينيها .

ـ لا يمكن أن يصل بك الجنون هذا الحد!

اللون الأزرق يغرقه . أصابعها تمسك بدر.

ولا قولها :

ـ يمكنك اتهام الآخرين ، ولكن لا يمكنك أن تسلبهم حق الد... أنفسهم!

ملأه الشعور بالذنب . « لا زلت انتمي إلى الفصيلة الإنسانية! . . كان الأحرى بي أن لا ألقي شباكاً من نوع ما »

ـ عليك أن تذهب!

سمع صاحبه يقول . عيناه على حذائها الصغير . « تقودني بقدميها! »

ونهض . « عليَ أن أحسن التصرف . » سار إلى جانبها ، بينما كانت هي تتحدث بلهجة رقيقة :

ـ أقر بأني أخطأت تجاهك عندما عاملتك معاملة خاصة ، بيد أن ذلك لا يعني تصميمي على دفعك لطلاق زوجتك . أنا عاملتك معاملة خاصة لأنك إنسان خاص .

ارتخت أصابعها . أصابعه عادت إلى طبيعتها .

لم يدر كم مضى عليه من الوقت وهو يسير . « اظنها الطريق التي سلكتها! »

كل الذي فعله أنه وضع الشمس وراء ظهره . لعل الاتجاه غرباً يقوده إلى حيث مكان الحادثة .

Tele: @Arab_books

٤

أخيراً بان لعينيه خط الأسلاك الشائكة ، ولولا الحشائش المتسلقة ما استطاع رؤيته من ذلك البعد . «لماذا أحاط صاحب الأرض أرضه بالأسلاك ؟ . . أمن أجل أن يحميها عن الآخرين ؟ . . هو يزرعها من أجلهم!» يعترضه جدول صغير ، ليست به رغبة للاستدارة . «ربما يوجد سبب آخر دفعه لاحاطة أرضه بالأسلاك . لعله فعل ذلك من أجل أن يقنع نفسه بأنه يمتلك شيئاً ، وما دام كذلك فهو موجود .» . استجمع قواه ، وقفز الجدول . نقيق الضفادع ينفذ إلى أذنيه . «الحيوانات تعيش على هذه الأرض . تأكل منها . تموت عليها . لكنها لا تبيعها أو تسورها ، لعل الحيوانات لا تعي وجودها!» . عقد حاجبيه . اكتشف بأن زمام أفكاره أفلت من يده . «بدأت أخرّف . . لا يمكن أن أكون عاقلاً!»

«لا يمكن أن أكون عاقلاً!»

هو ردد مع نفسه دون أن يلقي بنظرة أخيرة على صديقه الذي بقي حبيس الأريكة الخشبية ، وعيناه مشدودتان إلى حيث الزبير .

«تقودني إلى مكان ما!!»

ما عاد يستطيع الحكم على نفسه . تصرفاته كانت تبدو له غريبة . . دخيلة .

ها هو يتفوه بكلمات قبل أن يفكر بها . ترى ما هو الدافع الخفي الكامن

وراء ذلك . حربه آلت إلى حال تحتم عليه أن يعيش تمزقاً عقلياً ونفسياً في جميع جبهاتها ، ترى هل باتت علاقته بها هي احدى جبهات حربه . ماذا لديه . هي انسانة ، وهو ما عاد يعترف بنفسه انساناً .

ـ لا يمكن أن تبقى مصراً على رأيك! . . استخدم عقلك ولو لبرهة . . أنت انسان!

لم يبتسم ، وأجابها :

ـ انسان خاص .

نظرت في عينيه .

ـ ألا زلت تتمسك بكلمة قلتها أنا في الماضي! . . حسناً . . أنا أعتبرك إنساناً خاصاً لأسباب . .

لذ له السماع . لكنه رغم هذا قاطعها :

ـ مقدرتي الفنية . . أليس كذلك ؟

غص فمها بلعابها :

ـ ليس . . ليس هذا فقط . بل لصراحتك ، ونظرتك الواقعية للحياة ، وحكمك على تصرفات الآخرين ، ثم . . .

وصمتت ، ود لو يمسك ذراعها كما كانت قد فعلت ، بيد أنه أحجم . لعله يرمي إلى هدف أبعد .

سيدفعها للامساك به كي يحملها بعد ذلك جميع مسؤوليات تصرفاتها . أبطأ من سيره قليلاً . وكانا قد وصلا إلى جانب الباب الصغير لدائرة بريد البصرة . حدق في الباب الأحمر . وداهمه ـ دون سابق استعداد ـ غضب كبير .

ـ هي مغلقة!

أفلتت من فمه بلهجة حاقدة .

ـ من ؟

ـ دائرة البريد .

ابتسمت ابتسامة حزينة ، وأمسكت بذراعه . «علي اللعنة!» . ثم سمعها تقول برقة متناهية :

ـ أنا أعلم بأن الجسم يلجأ إلى طريقة ما لحمل الصدمة التي يتعرض لها . فهو لا يتوانى عن الإغماء أو فقدان الذاكرة ، بل يلجأ إلى الجنون أحياناً قليلة . غير أني أتوسل إليك أن تمد يد المساعدة لنفسك قليلاً من أجلي!

كفت قدماه عن السير .

ـ من أجلك أنت!

هزت رأسها موافقة ، خيل إليه أنه رأى دمعة صغيرة تجول في عينيها .

ـ لماذا ؟

خفضت رأسها ، وأجابت بلهجة عميقة مغايرة لسابقتها :

ـ لست أدري . . أنت تسيرني في طريق ما رسمتها لنفسي!

صمتت برهة قبل اتمامها :

ـ وسواء كان ذلك عن عمد منك أم لا فإنه ليسعدني أن أسيرها .

ـ لماذا ؟

أطلقت زفرة ، وتمتمت :

ـ يحسن بنا أن نسير .

اقترب من الأسلاك . مد يده إلى غصن من الأغصان المتسلقة وانتزعه . «غريب! . . هو بلا أشواك!» سار بحذاء الستار الأخضر . كوخ صغير يجثم غير بعيد عنه . لا يمكن ان يسكن!» اقترب منه وأطل بداخله . حشائش جافة تفترش أرضه . التعب يهد كيانه . الحشائش الجافة تشده إلى رغبة بالاستلقاء عليها . «الحقيبة أولاً . . يحسن بي أن أسير .»

ـ يحسن بنا أن نسير .

ـ . . . .

ـ أخبرتهم بأني ذاهبة لبيت خالي . . . .

فقاطعها :

ـ وأنا أخبرتهم بأني سأبقى في بيت خالي .

تجاهلت مقاطعته ، وأتمت :

ـ كان علي أن أبرر نفسي تجاهك . أنت أتهمتني . . .

ـ اتهمت الجميع .

قال كأنه يود أن يحلها من مسؤوليته .

ـ دعنا من جنونك!

ومرقا أمام مقهى فالتزمت الصمت . عيناه طافتا على بعض الوجوه . « جلست فيها مرة » احساس مبهم يعرفه بوجود انسان يراقبه . « اللعين! »

عينان متعبتان تراقبانه .

ـ ياله من شيطان! . . ما الذي جاء به إلى هنا ؟!

ـ من هو ؟

سألته باهتمام ، فأجاب وابتسامة ماكرة تطالعه من تحت شارب أبيض كث .

ـ رئيس عملنا الأسبق .

عاد بعينيه إليها ، وتكلم بجد أدهشها :

ـ أحالوه على التقاعد . هم أحالوه ، بينما أنا أحلت نفسي .

شدت لحم ذراعه بتصميم .

ـ لن تفعل أي من حماقاتك .

ـ ولم لا ؟

ـ اسكت!

خطت عبر الرصيف ، وتطلع إلى الجهة الثانية من الشارع . المكتبة التي جلد بها بعض كتبه قبل أسابيع تطالعه بواجهتها المغلقة .

ـ لم يعد لها مكان لدي .

ـ من ؟

سألته فأجاب باستخفاف :

ـ الكتب .

●●

«الكتب! . . الكتب!» ضرب الأرض بقدمه . أحس بالتراب الداكن يُسحق تحت قدميه ، وتطاولت عيناه إلى ظله . خط الأسلاك لا زال يمتد ويمتد ملتوياً عبر غابات النخيل .

«الكتب كانت . . . الرابطة الأولى!»

والحت عليه ذكرى بعيدة .

«ثوبها كان أصفر تلك المرة» .

لم يكن يتطلع إلى الثوب . هو يكره اللون الأصفر . دفعت إليه بكراسه الصغير وهي تقول :

ـ لم أفهم القصد الذي رميت له من وراء كتابتك لهذه القصة الغريبة ؟

لم ينظر ناحية ثوبها ، وأجاب :

ـ بطل القصة أكثر من واحد . كلهم اناس غير طبيعيين . اناس خلق المجتمع والظروف أخلاقيتهم ، فبدوا في عيون الناس الطبيعيين مجرمين محترفين . . أليس كذلك ؟

حركت رأسها مجيبة .

ـ أنا كشفتهم على حقيقتهم ، وسيرت مصائرهم . فماذا كان شعورك الأخير نحوهم ؟

اعتدلت في جلستها .

ـ ان أردت الصدق فهؤلاء رغم غرابتهم أدركت أن جزءاً منهم يعيش فيّ ، وأخيراً أحسست تعاطفاً معهم .

فأجاب :

ـ هذا ما هدفت إليه . أن أنصر انسانية الإنسان الذي اضطره المجتمع ، ودفعته ظروف معينة إلى سلوك مسلك مغاير لسلوك الآخرين . هم يعتقدون أنفسهم على حق وصواب تجاه تصرفاتهم ، وكل الذي فعلته أني كشفت الدوافع

الخفية وراء تصرفاتهم . فما كان إلا أن بانت تصرفاتهم انسانية لا غبار عليها رغم صدورها عن ناس عليهم الكثير من الغبار .

الثوب الأصفر نأى بنفسه . خط الأسلاك لا زال يمتد ويمتد متلوياً عبر غابات النخيل .

شيء ما يعترض الأسلاك . شيء صغير تكاد تخفيه الحشائش المتسلقة . دقق النظر . «باب من الصفيح!» مر إلى جانبه . «ومغلق أيضاً!»

المكتبة التي جلد بها بعض كتبه كانت مغلقة .

ـ لا مكان لها لدي .

ـ من ؟

سألته ، فأجاب :

ـ الكتب .

ثم ارتقى بمعيتها الرصيف الآخر .

ـ بالنسبة لي إلى ايران . . أما أنت . .

ـ أين نذهب ؟

شدت لحم ذراعه بقوة ، فشعر بضعفها وابتسم :

ـ حسناً .

ودخلا طريقا جانبية . «حمام السيف ليلاً ونهاراً للرجال فقط .» قرأ اللافتة المضاءة بصوت مسموع ، والتفت إليها .

ـ ألم تداخلك رغبة بالولوج إلى هذا الحمام ؟

ـ لا .

ردت عليه باقتضاب ، واستطردت :

ـ علام سألتني هذا السؤال الغريب ؟

ـ لعله صدر عن انسان غريب عن فصيلته .

هدأت ثائرة غضبها ، وتمتمت :

ـ أظنني سأجن أيضاً!

فأجابها ببرود :

ـ بل أنه حدث .

لم تنظر إليه :

ـ «اش!»

واستدارا عبر طريق أعرض من سابقتها ، حيث طالعتهما جدران مزدحمة بالأضواء .

سينما الرافدين مكان لا بأس به .

لم يناقشها قرارها . رغب بمراقبة نفسه ، فمه يحاول التفوه بكلمات غريبة .

الأضواء أبعدته عن محاولة المراقبة .

ـ هذان النهران . . نهران مظلومان حكم عليهما أن يجريا وإلى الأبد في أرض . .

لكزته بكوعها .

ـ «اش»

لكزتها غيرت من خط سير أفكاره .

ـ متى افتتحت هذه السينما ؟

سألها وهي تقف إلى جانب شباك التذاكر .

ـ بطاقتين من فضلك!

غير أنه سمع صوتاً من خلفه يرد على سؤاله :

ـ هذه السينما موجودة منذ سنوات . كانت بغير هذا الاسم . جددت قبل أشهر .

التفت إلى مصدر الصوت . كان شاباً لا تتجاوز سنه العشرين ، وقال :

ـ اذن فالمادة الخام هي . . هي . . الجوهر هو . . هو . . تبدلت الأسماء ، وزوق المظهر الخارجي بألوان رخيصة . واقع ما قبل سنوات هو واقع اليوم . . .

أحس بها تمسكه من ذراعه ، وهي تلقي على عامل السينما الشاب نظرة اعتذار .

ارتقيا درجتين . بعدها التفت إلى العامل الذي تملكته الدهشة أكثر من ذي قبل .

ـ ما هو الفلم ؟

ازدرد العامل لعابه باضطراب وأجاب :

ـ أحد أفلام شارلي شابلن .

هي لم تلق نظرة اعتذار للعامل .

ـ هيا بنا!

طاوعها مرغماً ، وفمه يتمتم :

ـ ويجرأون على رفع شعارات ما قبل عشرين سنة! جسدها صدم جسده .

ـ ارجوك!

تملكه الغضب . غضب من شيطان جسده الذي بدأ يتحرك ، فاستدار على نفسه .

ـ سأعود .

ـ ماذا ؟!

أفلت من يدها ، وهو يعيد قوله « سأعود » قفز درجتين . أحس بها تمسك بتلابيبه من الخلف . بينما ترك عامل السينما مكانه متوارياً عن الأنظار .

جمد هذا في مكانه .

ـ لقد هرب!

ـ أنت أفزعته!

ـ أنا لا أعنيه . . لقد هرب! . . أنه الشعور بالذنب ، والتملص من المسؤولية ار . . .

ثم التفت إليها . خالها ستعارضه . « ماذا ؟! » . كانت تبكي . تصلب

جسده وهويتلقى كلماتها الباكية :

ـ أنت . . أنت الذي تدعي نصرة انسانية . . الـ . . الانسان!

أمسك هو بذراعها هذه المرة .

كانت القاعة شبه خالية إلا من بعض الأطفال . تقدمته إلى أعلى . كانت قد استعادت هدوءها .

ـ لا بأس أن تكون نيتشه لهذا العصر ، بيد أن نيتشة أصيب بلوث عقلي في اخريات أيامه ، وأنت تجن في الثلاثين .

نأى بعينيه عنها ، فعل ذلك مخافة أن تكتشف غضبه .

● ●

سلحفاة صغيرة اعترضت طريقه . تخطاها ، ثم حانت منه التفاتة إليها .

كانت تعاود الزحف . «لماذا خُلقت داخل هذا القفص المحكم ؟!» عاد بوجهه إلى الأمام . «كيف عودت نفسها أن ترضى بواقعها ؟!» وكف عن التفكير فجأة . نهر السيبة لاح من بعد قريب .

● ●

Tele: @Arab_books

٥

تملكته الدهشة . كذب عينيه ، واقترب من الأسلاك . . المائلة . الصورة التي يراها ذكرته ـ للمرة الثانية ـ بقاذقات القنابل الانكليزية . « لا يمكن! » الرجل الغريب لا زال معلقاً على الأسلاك . « لا أرى وجهه! » الحشائش المتسلقة تخفي الوجه الضخم . الحذاء الثقيل أمام وجهه . « إلى الآن! » مد يده وتحسس الحذاء « غريب! » داهمه احساس صغير بروح المغامرة . ترك الحذاء ، وانحنى مقرباً وجهه من الوجه المقلوب . الأسلاك تكاد تلامس أنفه . « ميت! » انحدر بعينيه إلى الفم . كان مفتوحاً وخيط لعاب يسيل منه عبر الأسلاك .

ـ ألا زلت حياً ؟

خيل إليه أنه سمع صدى لسؤاله . . . همهمة مبهمة ندت عن خيط اللعاب .

ـ أنت حي ؟

العينان المغمضتان انفتحتا فتحة جزئية .

ـ ماء!

تراجع خطوة إلى الوراء . عاوده الاحساس بالذهول . « يريد مساعدتي! . . أنا طلقت الانسانية! »

ـ ماء!

ثـم انـقطع خيـط اللـعاب . «لـعله مات؛» عاد يـنحنـي بـوجهـه . «عيـناه مغمضتان؛»

ـ ماء؛

«لن ارتـبط بـه .» وتذكـر حقيبته . «عليَّ أن أجدها . أنـا مرتـبط بـها .» اتجه إلى اقرب نخلة . محاولاً الاستعانة بـها على قفـز الأسلاك . «هذه المـلكية التي يفـرضها الانسان على الأرض بالقوة؛» دار بعينيه على الأرض مفتشاً . لم يجد ما أراد ، وعادت عيناه لتصطدمان بـالـرأس الكبـيرة . «عادت قاذفة القنابل لالقاء اللعاب . لا بد أنه جف من الماء؛»

ـ أظنهم لم يعثروا عليك؛

ـ ماء؛

ـ كان على أحدهم أن ينبههم لمكان وجودك؛

ـ ماء؛

انتابه غضب .

ـ يمكنك الاحتفاظ بلعابك . أنت تضيعه على هذه الصورة؛

ـ ماء؛

طفح كيل غضبه :

ـ أنا لست منكم . . طلقت الانسانية؛

ـ ماء؛

ـ اللعنة؛؛

عليه أن يسكت هذا الصوت الواهن . «يمكنني . . .»

ـ «أنت إنسان خاص .»

صوتها يرن في أذنيه :

ـ «أنت انسان خاص .»

اللون الأزرق يطغى على عينيه . «كانت تتكلم بصدق .» اقترب . «أفلت الزمام من يدي؛»

مد يده إلى الحذاء الكبير . أسند الكتف الفخمة بساقه ، وخلص الثوب من الأسلاك . تداعى نصف الجسد الأعلى عليه . أصبح الوجه الذي بلون الأرض متجهاً إلى السماء . « كانت السماء زرقاء . . وليس الآن! »

ـ آه!

ندت عن الفم الداكن . الأسلاك الشائكة تمكنت من ذراع المصاب . أحدثت جرحاً . « أسلاكهم تمسكهم! »

ـ ماء!

انتزع حذاء من احدى قدمي المصاب . « ليكن . » واتجه إلى أقرب جدول . « الاناء الحذاء! » صوت ضفدع انتزعه من خيالاته . فكر أن يصطادها ويضعها في الحذاء .

ـ « لا يمكن أن يصل بك الجنون هذا الحد! »

« كنت لا أريد الذهاب بمعيتها . . لا أريد أن أربطها إلى عجلتي . . لكنها أصرت! »

ملأ الحذاء وعاد أدراجه . « ما كنت أريد الذهاب بمعيتها إلى السينما . . لكنها أصرت .! »

أفرغ ما في الحذاء على وجه الضابط .

شفتا الأخير تحركتا باضطراب ، وبرز لسان بنفسجي يلعق الشفاه القرمزية .

« لم يكن لسانها بهذا اللون . كنت استفزها . . أكذب عليها . . كنت أنوي تحطيمها لأنها تنتمي إلى الآخرين . . في السينما . . »

واسترعت انتباهه حركة الحنجرة الضخمة . « كل شيء ضخم! »

ـ أين أنا!

تساءل الضابط بعد دقيقة كان حامل الحذاء ـ خلالها يقف قبالته . « أنت هنا . »

ـ أين أنا!

ـ على هذه الأرض التي تدور .

انفتحت العينان على سعتهما . الدهشة الوليدة استطاعت محو بعض الاحتقان .

ـ من أنت ؟!

« ها نحن نعود إلى الأسئلة! » استدار على نفسه . « يعز عليَّ ألا أتركه . »

ثم خطا خطوتين .

ـ ماذا أنت فاعل ؟!

زلزله صوت الضابط بتوسل فزع . « ها هو يخاطب عواطفي الانسانية . . وها هي تحاول الاستجابة . . والا لماذا توقفت . . اللعنة عليَّ وعليه! » .

ـ **« أنت انسان خاص . »**

أغرقه ثوبها الأزرق . كانت صادقة معه .

ـ **« أنت انسان خاص . »**

واستدار عائداً . صوتها لا زال يرن في اذنيه :

ـ **« أحببتك لأنك تنظر إلى الآخرين نظرة خاصة ، وتقيمهم حسب ما هم فيه الآن ، وليس على أساس ما كانوا عليه . »**

ـ حسنا ؟

فتساءل الضابط :

ـ ولكن . . ولكن . .

جلس بعدما ألقى بالحذاء بعيداً ، وأشار إلى الآخر يطلب منه التزام الصمت .

ـ لا بد أني بقيت معلقاً على الأسلاك لساعات طوال!

« لو أنها صمتت . . لو أنها ذهبت وتركتني إلى جانب ذلك الحيوان على الأريكة . . . لو أنها أكتفت بحاضري ، ولم تسألني عن الماضي . . . »

ـ هه! . . يا لها من وقفة مريحة!

«هي أيضاً كانت تعيد السؤال تلو السؤال .»

عاد الضابط يقول بلهجة ترجو الإجابة :

- أحس بالدم جميعه في رأسي!

- كل شيء مآله الانحدار .

- أحس بنصفي الأسفل غريباً على جسدي!

- أنا على العكس .

ابتسم الضابط ، وردد :

- شيء كالرصاص المذاب يحرق داخل اليتي!

- هو الرصاص .

شاب صوت الضابط حزن حقود :

- أصابوني الكلاب!

- ونحن اللصوص .

- أنت تتكلم بصورة غريبة!

وأنت تتكلم بصورة طبيعية .

خيم عليهما الصمت برهة . قال الضابط بعدها :

- لازلت عطشاً!

- حسناً .

وانحنى على الضابط وهو يستطرد :

- اسمح لي!

ثم انتزع الحذاء الآخر من القدم الثانية .

- ماذا تفعل ؟!

- آتيك بالماء .

- لكن . . . الحذاء!

- مابه ؟

تردد الضابط قليلاً ثم قال :

ـ تأتيني بالماء في حذائي!!
ـ حذاؤك!
ـ نعم
أطلق الواقف زفرة . أثناء ابتعاده تمتم :
ـ هو من صنع الآخرين .

●●

انحنى على الماء ، وصافحت أنفه رائحة الحشائش . « يمكن للضفدع أن تدعي ملكية الجدول بوضع اليد . »

عاد بالماء . قطراته كانت تتساقط من طرف الحذاء . ارتسم اشمئزاز على وجه الضابط .

ـ خذ .
ـ ألا يوجد سبيل آخر ؟!
ـ بلى . . أن تذهب وتغرق نفسك بالماء .
فأجاب الضابط :
ـ كنت قد أغرقت نفسي بالسياسة .
ـ ودفعت الثمن!
ابتسم ابتسامة واسعة ، واستطرد :
ـ بدأت تفهم .
ثم شرب من طرف الحذاء قبل الضابط .

Tele: @Arab_books

٦

ـ كم هي الساعة الآن ؟ . . يا له من ألم فظيع ينبعث من اليتي!

ـ هل أجيبك على السؤال الأول أم الثاني ؟

ابتسم الضابط وقال :

ـ الأول .

ـ ساعتي توقفت . . أظنها العاشرة .

ـ حقاً! . . آسف .

ـ اسمع . . ثانياً . . رقبتي اللعينة بدأت تؤلمني . أظن أن السبب يعود إلى حذائك الثقيل الذي اضطررت لحمله أكثر من عشر مرات خلال ساعتين .

ـ آسف .

ـ ثالثاً . . كان باستطاعتي تركك هنا ، لكنني لم أفعل ذلك لسبب واحد . . هو عدم وجود المكان الذي يجب أن أذهب إليه ، فأنا أريد الاختفاء من هذا العالم .

ـ أنت مجنون!!

ـ والآن . . ماذا تقترح ؟

صمت الضابط برهة ، ثم أجاب بتسليم :

ـ كما تشاء .

« عليهم اللعنة! . . لا أريد أن أتحمل مسؤوليات حياتهم وتصرفاتهم . لا

أريد أن أربط نفسي إلى عجلته . لا زال أمامي متسع من الوقت لكي أنفذ قراري . . لكن وجود هذا الانسان . . . »

- « أنت انسان خاص . »

اللون الأزرق يلزمه عند حد معين . عامل السينما أطل من الباب قبل قليل ، وهي تناشده بلهجة أقرب إلى التوسل منها إلى الرجاء :

- سيلقى عليك القبض . الحدود مغلقة - بمناسبة الثورة - منذ أيام!! . . أتدري بأن هربك معناه نهايتك ؟!

وهل هو بحاجة لأن يذكر ذلك . منذ سنوات وهو يفكر بوضع نهاية لنفسه ولكل شيء يتصل به . « لولا الشياطين الصغار! »

التفت إليها . ما كانت به حاجة للحزن ، وقال :

- ستترك الأطفال . لن تطالب بإبقائهم معها!

زوجته تحبه . بيد أن حبها من نوع غريب مجنون . وهاجمت رأسه ذكرى ، فتمتم :

- هي انتحرت .

عقدت حاجبيها بدهشة خائفة :

- متى ؟!

- قبل سنتين .

شاعت موجة حزن على وجهها .

- هي حية . . لا تخادع نفسك . . تمالك أعصابك!

- بل انتحرت .

لا يستطيع نسيان شروعها بالانتحار . كانت حاملاً ذلك الوقت « هه! . . زوجة! »

تحدته بقتل نفسها ، فضحك منها . جاءت بزجاجة كبيرة مليئة بالنفط . وقفت قبالته .

- « سأشرب! »

عاد يضحك . فأصرت :

- « والله أشرب! »

ضحك بصوت عال . وكان أن أتت على أكثر من نصف الزجاجة . لم يمنعها . بل على العكس داخله احساس بالراحة بادئ الأمر . ولكن . . .

سرعان ما تحول الاحساس المريح إلى فزع مجنون .

- « لن أظل معك . . طلقني! »

هو طلقها مرتين قبل ذلك .

- « قلت لك طلقني! »

عليها أن تفرغ النفط الذي في معدتها قبل ذلك . ستورده موارد التهلكة .

- « لن أسكن معك تحت سقف واحد! . . كنت تضحك مني أثناء شربي! »

الدقائق تمر . والنفط يعمل عمله في معدتها . سيضطر لحملها إلى المستشفى .

سيجري معه تحقيق هو في غنى عنه .

- « طلقني! »

هي مخبولة .

- « طلقني! »

لكنها ستتسمم . عليها أن تفرغه . عليها أن تتقيأ .

- « لن أفعل! »

افعلي .

- « لن أفعل! »

تملكه الغضب . انهال عليها بصفعة قوية .

- « مجرم! »

صفعها ثانية . وثالثة .

- « سأفعل . . سأفعل . »

بعد ساعة كانت تتفوه بكلمات غريبة

ـ «أحس شيئاً غريباً في رأسي! . . الأرض تدور بي! »

الأرض تدور منذ بلايين السنين . السكران يدرك ذلك . هي سكرانة .

ـ «أنا أحبك! »

هو يعرف أنها تحبه ، ولنفس السبب يلعن نفسه .

ـ «لماذا تركتني أشرب النفط ؟! »

تركها تفعل كي تعرف معنى للسكر .

ـ «النظرة الغريبة التي التمعت في عينيك اثناء شربي دفعتني إلى عدم الاتيان على ما في الزجاجة . »

سبب وجيه .

ـ «هل تكرهني ؟ »

كيف لا وهي القيد الذي يهد عنقه . . كيف لا وحبها يسعى إلى استعباده . . ألم يكفها حرمانه من اقتناء الكتب ومطالعتها!!

ـ أنت لم تجبني ؟! »

حقاً! . . سامحيه .

ـ « ألا زلت تحبني ؟ »

وأحس بذراعها حول كتفه .

ـ «أنا أراك بوجهين! »

ليته يراك بأكثر من وجه . مل هذا الوجه الناعم والعينين الصغيرتين . يقولون عنها . . جميلة . هو لا يدرك في أي جزء يكمن جمالها . لعله في لسانها الذي لا يكف ثانية عن العمل . حتى في النوم كانت لا تني تمارس نشاطها بكلمات لا يفهمها .

ـ «قبل أيام قال لي ابن خالي . . جمالك من نوع خاص آخذ بالازدياد رغم الولادة والرضاعة . . »

سيتنازل له عنها لو أراد ابن الخال .

ـ « أظنك لا زلت تكره أبن خالي ؟ »

كيف لا وهو الذي يبعث فيها الغرور مرة في الأسبوع على الأقل .

ـ « هو انسان طيب . »

بامكانه أن يقترن بها إذا .

ـ « هل تسمح لي بإغلاق الباب! »

وسيلة ناجعة للمصالحة . والنفط ألا يمكن أن يكون قد تسرب إلى أماكن أخرى .

عادت وجلست إلى جانبه . نظرة خاصة التمعت في عينيها . وشابت صوتها بحة معينة .

ـ « الثياب الداخلية التي جئتني بها أخيراً ضيقة جداً . هي تحز خاصرتي . . انظر! »

وكشفت ـ بحركة لا تخلو من غنج ـ عن نصفها الأسفل .

ـ « انظر! . . هي تحز في خاصرتي! »

احساس معين انبعث في وسطه . ذكره بتوحده ، وبالرجل الملقى إلى جانبه .

ـ والآن ؟

فحرك الضابط أجفانه ، ثم فتح عينيه .

ـ أود لو أبقى نائماً هنا ـ ليست لدي القدرة على السير .

ـ وإذا رآك أحدهم!

فأجاب الضابط بتسليم :

ـ وتشاركني المسؤولية!

ـ هو ذاك .

ـ يمكنك أن تذهب .

« وصلف أيضاً! »

راودته فكرة بأن ينطلق ، ولكن سرعان ما دوت في أذنيه :

ـ « أنت انسان خاص . »
وكان أن قال :
ـ ستموت هنا! . . لم لا أذهب بك إلى مستشفى السيبة!
سادت لحظات صمت قال الضابط أثرها :
ـ سيستخرجون الرصاصة من جسدي ، ثم يضعوني بأيدي السلطة . . أحاكم . . وأعود لأستلم رصاصاً جديداً .
ـ . . .
ـ أنا قتلت جنوداً ثلاثة صباح يوم الحركة . . .
ـ الثورة .
ـ المهم . . قدموا للقبض علي . لم يشهروا سلاحاً بوجهي . وجوههم كانت لاتخلو من عطف . قلت لهم . . دعوني . . فأصروا . .
عاد الصمت يلف الاثنين حتى تساءل الضابط :
ـ ألم أكن قاتلاً ؟
ـ بلى .
فابتسم بحزن مستطرداً :
ـ رصاصي نفذ إلى أجسادهم . عيونهم تتطلع إليَّ برفض تصديق واقعهم ، ثم سقطوا . . أحدهم اصبته في عينه . . .
ـ هه! . . افيون الأسف!
كيف يأسف على طلاق زوجته ، بينما هو قرر أن ينفذ ذلك منذ أعوام .
ـ وهي ؟
هذه الأسئلة التي يضيق بها . شاب صوته بعض غضب :
ـ لم تعد زوجتي .
ابتعدت برأسها عنه .
ـ خفض من صوتك الأطفال يفهمون!
حتى ابنة الجيران كانت تفهم . هي لم تدعه يعبث بسرتها . كانت في

الثامنة .

- «ليس هنا . . ليس هنا . .»

أما سرة زوجته فكانت تنبعج إلى الخارج . وتمتم :

- هي حامل .

- من ؟

فحدق في الأرض وأجاب :

- زوجتي .

لا زالت زوجته تعيش في رأسه . صديقه قال له مشجعاً ليلة الحادثة :

- «لكي تواجه المشكلة عليك اتباع أحد سبيلين . . أما الوقوف بوجهها بشجاعة ، وهذا بدوره يحتم عليك أعاشتها بدقائقها أياماً ، وأما أبعادها عن مخيلتك بالقوة . . قوة الارادة . فكر بأشياء أخرى . . أشياء أخرى . . أشياء . .»

هو يود اتباع السبيل الثاني . سبيل الهرب ، لكن زوجته - يأبى خيالها - إلا أن يغرق نفسه في رأسه .

- ما دام الأمر قد حصل فيجب ألا تفكر فيها طوال الوقت . لا تنس بأنها ليست المرأة الوحيدة في العالم . . أختي قالت - عندما وصلنا النبأ هي تحبه . . معاكستها له ناتجة عن غيرتها عليه . لا أظن أن أختي مصيبة . زوجتك مجنونة . هي لا تريد لك الاختلاط بأي انسان آخر . كنت أعلم بأنك ستثور يوماً فتحطمها . على أن لا تحطم نفسك . هناك من يودون رؤيتك سالماً . أنت دائماً تتحدث عن الآخرين . مرة سمعتك تقول لأختي . . . على الفرد كي يحقق الأخلاقية الاشتراكية التي هي جزء من الاشتراكية التطبيقية أن يؤمن بأنه جزء من الآخرين . ولأجل ذلك يخلص نفسه من شوائب الأنانية . . آن لك أن تطبق ذلك على نفسك!

هل تعلمين بأنه طبق تعاليمه على نفسه قبل كل شيء . خاصة مع زوجته . لقد حرص أن يذيب مصلحته في مصلحتها . حتى العمل الجنسي كان

يـراعي فيه رغبتـها . هي تـجهـل العلاقات الجنسـية أول مـا اقتـرن بهـا ، فبـذل جهوداً جبارة للأخذ بيدها . لم يتملكه اليأس . . .

ضحك ـ عندما وصل هذا الحد من التفكير ـ فالتفتت إليه :

ـ هذا يسعدني!

ونظرت في عينيه تحثه على الحديث .

ـ جميع جهودي معهـا بـاءت بالفشـل . إلا في شيء واحد أصبت نجاحاً باهراً .

وأمسك . فاستحثته :

ـ ما هو ؟

ـ العمل الجنسي .

تورد وجهها حياء .

ـ يا إلهي!!

ونكست رأسها ، بينما أتم هو :

ـ كنت آخذ بيدها أثناء العمل الجنسي عبر . . . .

ـ « اش »

فصمت ، وأتمت :

ـ أنت تحارب في جبهات متعددة!

●●

ـ لا بأس أن تؤلمني أليتي ولكن ما الذي حل بمعدتي!

ـ الجوع .

ـ ليست بي أية رغبة للأكل . . أنا أكره الطعام!

ـ لأنك مصاب .

ـ وما الذي أفعله لاصابتي ؟

ـ أنت أدرى .

ـ كن ايجابياً معي!

ـ لماذا ؟

بان الحزن على وجه الضابط ، وقال :

ـ لك حق .

ـ بطبيعة الحال .

تطلع الآخر بعينيه إلى السماء ، وعقد حاجبيه بفروغ صبر لفت نظر هذا .

« وحتى انتهى منه! »

ـ لا يمكن أن نبقى في هذا المكان!

ـ أنت على حق .

ـ في طريقي إلى هنا أبصرت بكوخ مهجور . . سأذهب بك إليه .

ـ وبعد ؟

ـ وحتى تموت .

انكمش وجه الضابط .

ـ لا أريد أن أموت . . لا أريد . . أنا مصاب بأليتي!

جوبهت كلماته بابتسامة ، أعقبها :

ـ وحتى تشفى .

ارتخت عضلات الوجه الملقى .

ـ لن أصل إلى الشفاء إلا بعملية جراحية!

ـ وحتى تحصل على عملية جراحية .

ـ ممن ؟

ـ من الضفادع .

ابتسم الضابط ابتسامة يائسة ، وتساءل :

ـ أليست لك خبرة بالجراحة ؟

ـ لا .

ـ أبداً ؟

ـ لا .

- وما الذي تفعله الآن ؟
- نذهب إلى الكوخ .
- لا استطيع المشي!
- سنرى .
- وبعد ذلك ؟
- سأنتظر موتك .
ازدرد الضابط لعابه بصوت مسموع :
- علام تكرهني ؟!
- وعلام أحبك ؟!

Tele: @Arab_books

٧

الشمس تجنح للمغيب . أطراف السعف تصطبغ بلون نحاسي لامع .
« هذا الفم اللعين لم يكف عن الكلام! » الضابط لا زال يتحدث مذ حلا في الكوخ قبل ساعات . « كم أكرهه! » مرات عديدة غالب غضبه . هو يكره الأسئلة وهذا الانسان لا يريد أن يفهم ذلك .

كان جالساً أمام مدخل الكوخ ، وعيناه تتغلغلان في المدى البعيد . احساس قوي يدفعه للتفكير بثوب أزرق . ود لو يفعل ، لكن الوجه الذي تكاد قسماته تختفي في عتمة الكوخ لا يزال يتحدث . قبل قليل طلب منه أن يساعده بتمزيق الثياب عن الجرح ، ففعل .

ثم عاد وطلب منه أن يغسل الجرح ، ففعل . لم يقنع بكل ذلك بل رجاه أن يستخرج الرصاصة .

« لا سكين . لا موسى . الحقيبة الزرقاء اختفت بالمرة » . الضابط قال وهو يلهث :

- « بإصبعك . . أغرز أصبعك في الجرح علك تصطدم بالرصاصة! »

صرخة مدوية ، وأصبع ما تحسست طريقها عبر لحم متمزق . الأصبع اصطدمت بعظم مهشم .

« عظام حوضك مكسورة! . . لا بد أن الرصاصة اخترقت العظم! » ظل الجسد الطريح يتلوى لأكثر من ساعة ، ثم عاوده الهدوء ليعاود لسانه العمل .

● ●

ـ ماذا بك ؟ . . أنت لا تجيبني!

ـ . . . . .

ـ أسألك للمرة الثالثة . . ألست ضابطاً ؟

ـ لا .

ـ هل قتلت شخصاً ما ؟

ـ لا .

ـ اذا . . أنت لص ؟

ـ لا .

ـ «ولا سياسي ؟»

ـ ولا سياسي .

ـ اذا . . أنت مجنون!

ـ . . . . .

ـ يجب أن تكون مجنوناً!!

ما عاد يستطيع الاحتمال أكثر ، فانفجر صارخاً :

ـ أأنا مجنون! . . أنت المجنون! . . ألق نظرة على نفسك . انظر إلى ما آل إليه مصيرك! . . كلمات معدودة من المذياع استطاعت القضاء على رتبتك العسكرية وعليك أيضاً . أنت مصاب . . شرطي نفر وضع لك نهاية لم ترضها لنفسك .

تملكته راحة صغيرة ، فخفض من صوته مستطرداً :

ـ الرصاصة تستقر في اليتك . مستشفى السيبة قريب . أنا أستطيع الذهاب ، لكنك لا تستطيع القول ـ أنا مصاب ـ مصيرك الذي رسمته كلمات مذياع قادك لقتل جنود ثلاثة قتلتهم وهربت من . . .

عجز عن الاستطراد . ابتسم الضابط بمواساة وأتم :

ـ من معسكر الشعيبة .

أمسك الآخر بطرف الجملة واستطرد :

ـ بثياب غير ثيابك الرسمية . أنت . . أنت ما عدت تعترف بنفسك! . .
وأنا لم استطع مساعدتك . كل الذي فعلته أني غرزت أصبعي في لحمك المفروم ، ثم عقمت الجرح بالماء الآسن . الماء الذي يمكن للضفادع ادعاء ملكيته بوضع اليد . . .

فقاطعه الضابط :

ـ مذ رأيتك صباحاً أدركت بأنك لست من الناس . لا أستطيع أن أسبغ عليك صفة ما . المهم . . أنا بدأت أتسمم بأفكارك ، ولعل هذا التسمم سيفوق التسمم الجسدي الذي سأصاب به ، مهما يكن . . سأجابهك بنفس سلاحك . . . أنا رسمت لنفسي طريقاً كان علي أن أسلكها . .

ـ كان عليك! . . أرأيت ؟ . . كان عليك . . وليس بارادتك .

ـ أنا اخترت . .

ـ نعم اخترت . ولكن من أجل ماذا ؟ . . الشعب ؟ . . لا . كانت بيدك السلطة تستطيع الخدمة عن طريقها ، مارستها لأشهر . . فماذا فعلت ؟

ـ . . . . .

ـ كل الذي فعلته أنك نافقت من هم أكبر منك مركزاً وأوسع نفوذاً ، من أجل الحفاظ على الكرسي . خاصتك . . الثورة التي ـ لعلك لم تشارك بها ـ لم تؤت ثمارها . . . لماذا ؟ . . فتمتم الآخر بصوت خافت :

ـ أظنك على حق . . لكنك لا تشبه باقي الناس!

ـ الأني اختلف عنهم ؟!

تجاهل الضابط السؤال ، وقال بلهجة تسليمية :

ـ كنت قد وقعت .

كور الآخر قبضته أمام الوجه الملقى .

ـ أنت تعلم جيداً بأن معدتينا لم تكفا عن التلوي ألا بعد أن ملأناهما . . ولكن بماذا ؟ . . الطعام غير متيسر لنا ، البيوت ـ التي قرب الشط ـ محرم علينا الذهاب إليها . . فماذا فعلنا ؟

ـ . . .

ـ ماذا فعلنا ؟

ـ لا أدري من أين أتيتنا بالفجل!

ـ سرقته . سرقته من بستان يبعد كثيراً عن هنا . قفزت أكثر من ثلاثة خطوط لأسلاككم .

ـ شكراً لك .

ـ اخرس! . . دعني أتم . أكلنا الفجل . هدأت آلام المعدة برهة ثم عاودتنا .

الفجل يولد الكثير من الغازات . نحن قررنا أن نأكل . حاجتنا دفعتنا إلى ذلك . فما علينا إلا أن نواجه نتيجة عملنا . نحتملها .

ـ أنت لا تشبه الناس! . . ما صلة الفجل بالسياسة ؟

ـ أنت أخترت الجهة الأقوى ، خدمتها لأنها تخدم طموحك إلى منصب أعلى . حسناً . . لا بأس في ذلك . أنت اخترت نوع الطعام الذي تأكله . لهذا عليك أن تتحمل نتيجة الوجبة التي هضمها طموحك الزائف . لكنك ماذا فعلت ؟

ـ . . .

ـ قتلت جنوداً ثلاثة أمروا بالقبض عليك . تماماً كما أفكر أنا ـ الآن ـ بضرب معدتي للتخلص من آلام الغازات . أنت سارق . . أخذت ثم رفضت دفع الثمن ، وها هي نقودك الرصاصية تسمم جسدك .

أغمض الثاني عينيه باقتناع ، وتمتم :

ـ اذا . . أنا المجنون!

ـ تماماً .

ـ بقيت أمامي الحقيقة الثابتة . الموت . استطيع أن أسير مصيري بالوجهة التي أريدها .

ـ أنت مجنون! . . قلت هذا وصدقت . أي مصير ذلك الذي تتحدث عنه ؟

مصيرك رسمته رصاصة طائشة من شرطي طائش . ستموت الليلة أو غداً .

كل الذي ستفعله ـ ان أتخذت القرار ـ هو التعجيل بالموت لا أكثر ولاأقل . . أفهمت ؟

أغمض الضابط عينيه ثانية .

ـ فهمت . اقتلني أنت اذا!

ـ سأفعل متى أردت أنا ذلك . والآن هلا التزمت الصمت!

ـ سأفعل .

Tele: @Arab_books

٨

أحس بالخدر يسري إلى ذراعه ، فسحبها من تحت رأسه . الأخير أبي أن ينسجم والوضع الجديد . كتفه عالية ، فانقلب على قفاه . به رغبة مجنونة لأن يطلق لخيالاته العنان . به حاجة لاستعراض ماضيه .

ـ ألم تنم ؟

سأله الضابط ، فأجاب ضجراً :

ـ بل أنا غاف .

انطلقت ضحكة مبتورة من ركن الكوخ ، أعقبها :

ـ لا أستطيع النوم . الآلام تسلبني القدرة على النوم . هلا تحدثنا قليلاً .

ـ أنا غاف .

ـ ولكنك تتكلم!!

ـ أنا غاف .

ـ حسناً .

العتمة التي يعيشها الكوخ تذكره بالظلام الذي ساد قاعة السينما فجأة .

ارتسمت لوحة مضيئة على الشاشة . ابتدأ العرض بفلم من أفلام الدعاية .

ـ هم دائماً يدعون إلى الأحسن!

تجاهلت حديثه . وقالت دون أن تدير رأسها :

ـ أين هي الآن ؟

« في مكان ما .» وأجابها :

ـ أجهل ذلك .

ـ والأطفال ؟

« حرموا من الأم والأب .» ثم قال :

ـ في بيت أبي .

ـ وأبوك . . ماهو موقفه ؟

« الأسئلة! . . ستحفظ ما أجيب به لتتحدث به إلى أختها أو صديقاتها .»

ـ ألم يفعل أبوك شيئاً ؟

وصله صوتها كأنه آت من مكان بعيد . . .

● ●

قبل أعوام فقد قدرته على احتمال زوجته . راودته فكرة شيطانية سارع إلى تنفيذها . « ليذهبوا إلى الجحيم! » هرب إلى بغداد سراً ، ضارباً بكل شيء عرض الحائط . زوجته كادت حاملاً أيضاً . هو قرر التسلل إلى الأردن بطريقة ما .

في بغداد التقاه ـ صدفة ـ أحد أعمامه . أقنعه بالذهاب معه إلى البيت .

ـ « ولو لساعة واحدة! »

هو ذهب . . .

عصر اليوم الثاني فاجأه عمه في الفندق . لم يحيه وابتدره قائلاً :

ـ « ما هذه السخافات التي سمعت عنها . .!! . . عليك أن تعود إلى البصرة حالاً ، ومحاولة ايجاد حل لمشكلتك . . من أجل أطفالك على الأقل . . أأنت مجنون ؟! »

هو لم يكن قد اطلع عمه على ما آلت إليه حاله ، بيد أن زوجة الأخير اختلت به في غرفة الطعام ـ يوم ذهابه ـ أكثر من نصف ساعة .

ناولته سيجارة . كانت شابة ، وعز عليه أن تشعل سيجارته . بدأت معه بسؤال عابر .

ـ « أنا أعلم بأن شيئاً ما قد حدث لك! »

هو ممتلىء لحد الفيضان . لمس منها تعاطفاً فانطلقت الكلمات على لسانه .

كانت تستمع اليه متلذذة بدخان سيجارتها . طلب اليها ألا تطلع عمه بالأمر .

ـ « يجب علي اتخاذ قراري وحدي . »

بيد انها فعلت . اطلعت عمه على كل شيء . بل أن لهجة عمه تدل على مدى اشمئزازه من تبسط هذا مع زوجته .

ـ « أظنها قالت كل شيء! »

سأل عمه ، فأجاب :

ـ كل شيء . . حتى الهدف الذي رميت . . . من جراء كسب . .

أخيراً أمسك عمه ، والشرر يتطاير من عينيه .

« هو ظنني أحد أبطال أميل زولا! »

وداخلته رغبة لأن يتقيأ . نهض من فوره يعد حقيبته . أحس بتفاهته تغزو معدته .

●●

داخلته رغبة للتحدث بصوت مسموع ، فشرع بذلك :

ـ ولما عدت . .

ـ من أين ؟

قاطعته وعينها على علبة صابون كبيرة تعرض على الشاشة .

ـ « اش »

فابتسمت ، واستطرد :

ـ من بغداد كانت زوجتي نزيلة المستشفى .

ـ هل شرعت بالانتحار مرة أخرى ؟

ـ لا . . بل شرعت بإسقاط الطفل من بطنها أكثر من مرة . هي مرضت . وهو رفض السقوط .

ـ ليتها ماتت!

حدجها بزواية عينه . « هه! »

ـ لعنتها ، ولم اذهب لزيارتنا بادىء الأمر .

ـ « لن أربيه مادام أبوه قد هجرني! »

كانت قد تعللت . وأتم :

ـ بعد أشهر ولدت الطفل . ولدته مشوها ، ومن حسن الحظ أنه مات في يومه السابع .

ـ أظنها ستسقط هذا أيضاً!

ـ ليتها فعلت ذلك . . ليتها . . .

ـ اليوم الذي سـ . . .

ـ هل أنت نائم ؟

انتشله صوت الضابط من خيالاته .

ـ أنا نائم .

ـ أتراني أموت الليلة ؟

ـ أظن ذلك .

ـ وهل يؤلم الموت ؟

ـ لا أظن ذلك .

ـ الخدر بدأ يسري في جميع أجزاء جسدي . خدر غريب كريه . أحس به ينز من مسامات جلدي!

ـ أظنه التسمم .

ـ أتعني بأن الرصاصة تأكسدت وهي في الداخل ؟

ـ لا أدري .

لعلي لا أموت!

ـ لا أظن ذلك .

ـ هل سبق وانتظرت موتاً محققاً لا مفر منه ومعك انسان مجنون لا يمد لك يد المساعدة بكلمة تشجيع ؟!

ـ مرات عديدة .

ـ عجيب ! . . كيف ؟

ـ دع ذلك .

ـ ها أنت إلى جانبي قوياً كثور ؟!

ـ أقدمت على الانتحار أكثر من مرة .

ـ ولم تفعل!!

ـ كنت أصاب بالجبن في اللحظة الأخيرة . احدى المرات قررت الانتحار برصاصة .

سرقت مسدس أبي القديم . حشوته برصاصة واحدة . جلست على الأريكة ، وأغلقت علي باب غرفتي . .

فقاطعه الضابط :

ـ أأغلقت الباب بعد جلوسك على الأريكة ؟!

ـ كان قريباً مني . أردت كتابة وصيتي . كان قلمي بلا حبر . لا محبرة لدي . أعدت المسدس وذهبت إلى السينما .

ضحك الضابط ضحكاً متواصلاً هز جسده ، وآل ضحكه إلى سعال حاد . بعد فترة ليست بالقصيرة لطف من صوته عند قوله :

ـ مجرد أوهام . . جنون عاقل!

ـ بل على العكس . كنت اقرر مصيري لا قتل نفسي . موتي يعني نهاية كل شيء بالنسبة لي . يعني عدم رؤيتي للنتائج التي ستترتب على عملي . كان ينتابني صراع داخلي حاد ، فأعيش ضمن دوامة تطيح بقدرتي على التفكير . أن يضع الانسان مصيره عن سابق تصميم ، وان ينتظر مصيراً لا بد له

من مواجهته شيء آخر . أنت الآن تنعي نفسك ، وتشفق عليها . تأسف على أيامك الماضية . أنا على العكس . علي أن أغضب من نفسي . ألقي بنظرة متخمة بالكراهية على ماضي أيامي ، ومن ثم أصدر حكم الاعدام .

- لكنك لم تفعل!!

- سأفعلها يوماً .

خيم الصمت برهة . وكأن الضابط رغب بإدارة دفة الحديث فتساءل :

- كم هي الساعة الآن ؟

- عدت تسأل عن الوقت!

- أنت على حق . لم يعد للوقت - بحد ذاته - معنى لدي ، لكنني لا أريد أن أموت في الليل!

- لن تموت في الليل .

- كيف عرفت ؟

Tele: @Arab_books

٩

ـ قل لي . . بالله عليك! . . قرأت مرة في كتاب ما مفاده أن خلايا الجسد لا تموت بسرعة كما هو متعارف عليه ، فالأظافر والشعر لا يقفان عن النمو ، كما أن احتمال وجود البول والغائط مهما كان قليلاً . . .

ـ وبعد ؟

ـ وبعد فمن الواجب عليك أن . . .

ـ فهمت ما تعنيه . . لن أقوم بالمهمة .

ـ ولكن . . .

ـ لن أفعل .

فعاد الضابط يتساءل :

ـ أتسمح لي أن أسأل . . لماذا ؟

ـ لأني لا ولن اعترف بأن الجيفة التي ستتبقى عنك هي أنت ، ولن أدفنها .

ـ لكنها أنا!

ـ أنت بهذا الصوت الذي تطلقه . وبالعاطفة التي تكنها . . بالحقارة التي أسفت عليها . . بالعين التي تبصر بها . . بالضحكة التي كادت تقضي عليك قبل قليل . . بالخوف الذي يشدك الآن . . .

وضرب الأرض بيده :

ـ أما تلك الجيفة ذات الجسد المتفسخ! . . فلن أكلف نفسي عناء النظر إليها .

هي لن تطلق صوتاً ما سوى بعض الغازات الناتجة عن أكل الفجل . . هي لن تشعر . . لن تبصر . . لن تدرك . . لن تضحك . . هي جيفة . . أفهمت ؟

ـ اذا فأنت ستتركني حالما أموت ؟!

ـ ستترك أنت نفسك قبل إن أفعل أنا .

بان الاستسلام على صوت الضابط :

ـ وسأذهب إلى الجحيم . . أليس كذلك ؟

ـ لا أظن ذلك .

ـ لكنني قاتل!

ـ ومقتول .

ـ أتؤمن بالقيامة ؟

ـ كما قامت عليك

انطلقت ضحكة من ركن الكوخ .

ـ فقط ؟

ـ أريدك أن تموت مؤمناً .

ـ لماذا ؟

ـ لأنك إنسان .

ـ وأنت ؟

« لست انساناً . » كادت هذه الكلمة تفلت من فمه .

ـ « لست انساناً . »

المطرقة الزرقاء بدأت تعمل داخل رأسه ، ولم يعد يسمع الصوت الذي بدأ يشاب بالود .

ـ لست انساناً!

لم يلتفت إليها بعدما قال ذلك ، وظلت عيناه تتابعان الممثل شارلي

شابلن على الشاشة . أحس بلهجتها تلكزه . هي غضبت لكونه أطلق حكماً دون أن يسمح لها بمناقشته .

ـ لست انساناً . . كلمتك هذه لا تعطيك التبرير الكافي ازاء تحجر عواطفك أمام موقف كهذا!

قد ينفجر باكياً ، أو يلجأ إلى الانتحار ، لو كان الموقف غير هذا . أما هذا بالذات فكانت تصرفاته تصدر عن لا وعي . لعلها نتيجة تكرار الحدث المتشابه ، أو المناعة التي اكتسبها بالخبرة .

ركز عينيه على شارلي شابلن . هو يسير منفرج الساقين . في الماضي اضحكه .

ـ لماذا يسير منفرج القدمين ؟

فسألته بحيرة :

ـ وما صلة هذا بذاك ؟!

ـ مجرد سؤال .

ـ هذه طريقته بالتمثيل .

فحور من أجابتها قليلاً :

ـ هذه طريقتي في الحياة .

ـ أنت تجيب أجابات غريبة!!

وهي ألا تسأله اجابات غريبة . هي تريد الامساك برأس الخيط فتأخذ به . تريد الغوص إلى أعماق نفسيته جرياً وراء الدوافع الكامنة وراء تصرفاته الجنونية .

مذ رأته قبل ساعة وهي تعيش جواً متخماً بالاثارة وروح المغامرة .

« رغم كونك معلمة ولك بعض الاستقلال الشخصي فأنت . . . »

فقاطعت تسلسل أفكاره بقولها :

ـ أنت لم ترد علي!

« وأن كنت أمت لك بصلة من القرابة بعيدة . . لكني مطلق ومن غير

المعقول . . »

عادت تقاطع تسلسل خيالاته بعناد :

- أنت لم ترد علي!

ـ ولماذا أفعل ؟

هو سبق ووضع نهايته . اجابته لن تغير من واقعه . لن يتقهقر عما صمم عليه . « ستحاول اقناعي بالعدول عن السفر! » ووصله الرد بتصميم :

ـ أنت وضعتني ضمن موقف لا أحسد عليه . جعلت مني السبب الرئيسي الذي وجه تصرفاتك . أنا متهمة . أليس لي بعض الحق بالاطلاع . . على الأقل ؟!

ـ لا .

صدمتها أجابته ، وتمتمت :

ـ واذا هددتك بالذهاب ؟!

لم يدعها للمجيء فلماذا يمسكها عن الذهاب . هي جاءت به جرياً وراء سراب اقناعه .

ـ ألست بحاجة للتحدث عن نفسك ؟

بلى هو بحاجة الى ذلك ، بيد أنه يتساءل : « لماذا ؟ » ماذا يجني من وراء ذلك . . مجرد تخدير وقتي .

ـ ألا تتحدث من أجلي أنا ؟!

سيتحدث ، سيكذب ويبالغ . ولم لا ما دامت الأشياء التي يجب أن يحرص عليها لم يعد لها وجود .

ـ لا حاجة لتبيان أسباب تصرفي الأخير . الأسباب كثيرة ومتكدسة منذ سنوات . كنت قد ناقشتها أكثر من ساعة . .

ـ حول ماذا ؟

فأحتج :

ـ أسحبي هذا السؤال . أنت تعرفين بعض طباعها . اقتنعت أخيراً على

حساب انسانيتي . كان ذلك بسبب أزماعنا السفر إلى بغداد . . . .

ـ سبب واه!

قاطعته ، لكنه استطرد :

ـ أعرف ذلك . أردت ترك المنزل لأنعم بلحظات من الوحدة أتذوق فيها حطام انسانيتي . وصلت الباب فاستوقفني صوتها . .

ـ « إياك والكذب! »

ـ « والله لا أكذب! »

ـ « وتقسم بالله! . . متى كنت مؤمناً ؟! »

ـ « حسناً . . أقسم بشرفي! »

ـ « أي شرف تتحدث عنه . . شرف الجري وراء . . »

ثم أمسك عن ترديد ما قيل له ، وجاءه سؤال :

ـ وراء من ؟

أطلق زفرة .

ـ وراءك أنت .

شهق الثوب الأزرق .

ـ هل جسرت على ذكر اسمي ؟! . . يا لها من . . لكنني لا أكن لها إلا الاحترام!!

كان شارلي شابلن يضع جسده داخل ماكنة كبيرة .

الماكنة تمكنت من جسده إلا رأسه فقد بقي خارجاً ، ووجهه إلى أسفل .

ـ انظري إليه . . حشر نفسه بإرادته!

ـ دعك من هذا . . وبعد ؟

زوجته لم تذكر اسم هذه . هو كذب ، وأتم :

قلت لها : ـ « لا يمكن أن أتنازل أنا دائماً! »

ـ « لأنك المخطىء دائماً . »

- « لن يكتب لحياتنا الزوجية البقاء لو . . »

فصرخت : ـ « كرهت هذه الشعرات التي تحملها ـ أنت طلقتني أكثر من مرة . . يمكنك أن تفعل ذلك الآن! »

- « ليس الآن . »

- « متى اذن ؟ »

- « بعد سنوات . »

- « لماذا ؟ »

- « ريثما تكبر ابنتنا . »

- « سأتنازل لك عنها! »

- « من أجل ألا احرمها حنان الأم! »

- « ستحرمها في جميع الحالات! »

- « من أجل طفلنا الذي في بطنك! »

- « سأسقطه في جميع الحالات! »

- « أنت تتحدينني!! »

- « لأنك جبان . »

وصمت فاستحثه الثوب الأزرق :

- ثم ؟

- خرجت وكانت كلماتها الأخيرة تدوي في اذني . . ـ « طلقني وسأضع يدي على الجزء الأكبر من راتبك . . الدين والقضاء إلى جانبي! »

ارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء .

- وبعد ؟

فأجابها :

- في الطريق التقاني صديق . . ـ « مابك ؟ » قلت له . . ـ « بي ريا وسكينة . »

وكف عن الكلام فجأة . كانت تضحك بصوت مسموع .

ـ أنا آسفة! . . لكنك مجنون حلو! . . وبعد ذلك ؟

ـ انتقلنا إلى رحمة الله .

ـ هه . . هه . .

يدها على مسند الكرسي ـ وراء ظهره ـ لأول مرة .

ـ الغثيان يملؤني . سأعود إليها بعد ساعة . ستكون ناسية حتماً . . ـ « ثيابي الداخلية ـ التي جئتني بها ـ ضيقة ، تحز خاصرتي . . انظر اليها . . ليس هنا فقط . . انه يحز في الأسفل . . » ذاك ماستقوله زوجتي .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ تقول ما تقول ، ثم تجري الأمور على هواها . ستضمني إلى صدرها ، وتدفعني للقيام معها بعمل جنسي . . الشيء الوحيد الذي اتقنته عن طريقي ، وتنام ملء جفنيها على حساب انسانيتي . . .

فأتمت هي :

ـ وفي اليوم التالي يعاد تمثيل المهزلة عشر مرات على الأقل .

ـ أتصدقين . .

أحس بنفسه يصدقها القول :

ـ بدأت أدرك بأني سأفقد انسانيتي أن لم أفقد زوجتي!!

حسنا . . ها هو يحلها من مسؤوليتها . شارلي شابلن يطلق سائلاً أسود من مضخة صغيرة في يده على وجوه المارة ، معيداً تمثيل حركته وهو يقوم بضبط صمامات داخل المعمل .

ـ أنا أيضاً أطلق انسانية سوداء في وجوه الآخرين .

أرجو ألا تديري وجهك إليَّ!

ضحكت ، واستدارت إليه بكليتها . أحس بنهديها يتململان خلال الثوب الأزرق .

ـ هما متماسكان .

ـ من ؟

سألته فأجاب :

ـ نهداك .

ـ «اش» أجننت ؟!

ـ كم سنك الآن ؟

ـ لماذا ؟

وكانت قدبوغتت بسؤاله ، بيد أنه أتم :

ـ أنت ناضجة للأكل .

ضحكت بضيق أزعجه .

ـ فقط ؟

بالنسبة له . . لا .

ـ ماذا اذا ؟

سيجيبها ولكن ليس الآن .

التزم الصمت . شارلي شابلن تجري عليه تجربة الأكل عن طريق آلة مبتكرة . إناء الحساء دلقته الآلة على ثيابه . الضحك يعلو قرب الشاشة .

ـ وبعد ؟

لن يقدم على أكلها .

ـ أعني بعد خروجك من المنزل ؟

ـ وما فائدة ذلك ؟

عادت أصابعها ترجو ذراعه . أصابعها حلوة ، ناعمة .

أصابعها ليست كسواها . هي من صنف خاص .

ـ وبعد ؟

هو يحبها .

لم تترك ذراعه .

ـ أنا أسألك عن الذي حدث بعد خروجك من المنزل! . . أصبح الحب مجرد لفظ بين شفتيك . . حتى ولم تسألني رأيي!

علام يسأل ؟

ـ ألست طرفاً ؟

لا حاجة به للسؤال مادام قد حقق حريته . بالأمس قال ـ لن أحقق سعادتي على شقاء الآخرين واليوم يقول . .

وصمت .

ـ واليوم ماذا تقول ؟

هو يحبك وكفى .

ـ أنت مجنون! . . لكني اعتز بعلاقتي معك . يجب أن تنظر الى نفسك من خلال الآخرين!

ما عاد يعترف بوجودهم .

ـ لكنك منهم!

في الماضي .

أدركت لا جدوى مناقشتها معه فأدارت دفة الحديث :

ـ الا زلت تتألم ؟

يتألم! . . ما هو الألم ؟ . . هو ما عاد يحس احساسات انسانية . كل الذي يعرفه أنه ولد عفواً ، ودون مبرر ، ثم ألقي به في خضم هذه الحياة . هو لا يعني سوى الشعور باللاجدوى واحساس آخر يحز في نفسه . . . الغثيان .

ـ الغثيان!!

ولا شيء سواه .

ـ أنت بحاجة للتنفيس عما يعتمل في داخلك!

داخله فراغ .

ـ حسناً . . من أجلي تكلم! . . بالله عليك!!

عدنا إلى السلطة الدينية!

شارلي شابلن يتحدث بالإشارات ، وفتح فمه :

ـ المقهى مغلقة . ألقيت بنفسي على الأريكة . المستقبل المتحرر من

القيود يدعوني ، وخيالك أنت يشدني .

« حقير! » انتظر أن تعترض . فقط تحركت أصابعها على ذراعه .

ـ أصابعك حلوة!

ـ وبعد ؟

ـ وأنت أيضاً .

زمت شفتها .

ـ أعني . . ما بعد الأريكة ؟

ـ في المرات السابقة كانت تنتابني نوبة من الشرور سرعان ما تتحول إلى صراع داخلي مجنون ، وتدوي في رأسي آلاف المطارق « ... أطلقها ؟... لا . أطلقها ؟ نعم ، أطفالي ؟... إلى الجحيم بهم . أطفالي ؟... ضحايا بريئة . أنا ؟... أكرهها... أنا ؟... تعودت معاشرتها ، أبي ؟... إلى الجحيم به . أبي ؟ قادها إلي بزواج أعمى . أمي ؟... لا يمكنك احتمالها إلى الأبد . أمي ؟ . والأطفال! . أخي ؟ . لا دخل لي بالأمر . صديقي ؟ . هي غبية... ولكن الأطفال! . الناس ؟ . أصبح الدين لعبة في يديه »... غير أني في المرة الأخيرة لم أفكر .

ـ لماذا ؟

ـ لوجود خط الرجعة .

« حقير! » هو لا زال يمارس الكذب . وتساءلت :

ـ خط الرجعة!

ـ أنتِ .

تشنجت أصابعها على ذراعه .

ـ لم تكن قد اخذت رأيي!!

ـ ولم أنو أن أفعل . . يكفي حبي لك .

« إلى هذا الحد بلغ بي النفاق!! » وسمعها تردد :

ـ أنا آسفة! . . آسفة . . استحق الكراهية!

أحس انقباضاً في صدره . تذكر بأنها بكت بعد قولها :

- «أنا أستحق الكراهية!»

«عليها اللعنة . . لماذا بكت . . لماذا ؟!»

وأرسل بصره عبر مدخل الكوخ حيث السماء .

«هي بلا نجوم!»

Tele: @Arab_books

١٠

لم ينظر إلى ساعته .

ـ قلت لك . . توقفت منذ الصباح . . لعلها التاسعة مساء .

ـ كن رفيقاً بنفسك!

ـ أنا!!

فأجابه الضابط :

ـ يكاد الغضب ـ الذي لا مبرر له ـ يكتم أنفاسك!

ـ ليهتم كل منا بشؤونه الخاصة .

ـ لا بأس . . سأنام .

« لا أظن! » ثم نقل عينه بحركة دائرية إلى الخارج ، وألح أمام عينيه خيال أزرق .

« لم تكن قاعة السينما بمثل هذا الظلام! »

شهقات مكتومة ترجف صدره .

ـ كفي عن البكاء . . هو عمل لا مجد!

هي تعرف . . لكنها لا تستطيع منع نفسها!!

تركها تبكي . لم يناولها منديلاً أبيض كما يفعل الآخرون .

ـ بكاؤك . . علي أم عليها ؟

عليهما معاً .

ملأته رغبة لأن يتم ما بدأه ، فتجاهل محاولتها للسيطرة على زمام عواطفها ، واستطرد :

ـ وبكل بساطة عدت إلى البيت بعدما اتخذت القرار . . كان عليه أن يفكر أكثر!

هو لم يقرر أثناء جلوسه على أريكة المقهى . قراره بدأ منذ زمن بعيد . كل الذي فعله . . .

ـ استدعيت المستقبل . . ابنتي كبرت . . افترضت ذلك . . وكذلك زوجتي لم تعد حاملاً . . .

وعندما عاد . . ألم تهرع إليك ؟

ـ أنا تسللت إلى الغرفة . لم أشعل النور . أكتفيت بالضوء المتسرب من الردهة . تناولت ورقة بيضاء . . بحثت عن القلم ، فلم أجده .

ليترك الطلاق اذا!

ـ تناولت قلم الرصاص . . وخططت أسطراً ثلاثة . ألم يضطرب وقتها ؟

ـ بلى ارتعشت يدي . وفجأة قررت ألا أفكر ، ولم أنظر إلى ما كتبت . بعد خروجي تذكرت شيئاً ، وضحكت .

كيف يضحك ؟ . . لعله فقد عقله!

ـ تذكرت بأنني أرّخت الورقة بتاريخ ١٨ من الشهر بدلاً من ١٧ .

وبعد . . ماذا فعل ؟

ـ تسللت ثانية . هي لمحتني خارجاً . صرخت . . ـ « ماذا في يدك ؟! » . . ركضت .

فركضت خلفي . . ـ « ماذا في يدك ؟! » . . قفزت خارجاً ، وأمسكت مقبض الباب . هي تشده إليها بقوة . . ـ « افتح الباب! » . تمسكت به . كان أحدهم قادماً . . ـ « مابك ؟ » سألني ، فقلت له . . ـ « ناد على أبي! » . . أخيراً جاء أبي . قلت له ـ « لا تدعها تخرج! » وناولته الورقة . ـ « ماذا فعلت ؟! » ـ صرخ أبي بجزع . . ـ « لا شيء . » أجبته ، وانطلقت إلى

المقهى مرة أخرى . هواء الطريق حاد . أحسست بجسدي خفيفاً على غير عادته . . ـ « فعلتها ؟! » سألني صديقي الذي التقاني فجأة . ابتسمت ببلاهة ، وقلت له . . ـ « كيف عرفت ؟ » . . ـ « يطل الجنون من عينيك . » أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى كيلا أحرجه عندما سقطت من عينه دمعة .

وبعد ذلك . . ماذا حدث له ؟

ـ صديقي عاتبني بقوله : ـ « أنت تدري بأنها المرة الأخيرة التي لا عودة بعدها ، أنت وعدتني أن يتم ذلك بعدما تنشأ ابنتك ـ ويولد . . » فقاطعته . .

ـ « ابنتي كبرت وزوجتي ليست حاملاً . » .

شارلي شابلن يسرق لحظات من وقت عمله . هو منزو في مرفق صحي يلتهم طعامه بسرعة حينما ظهر وجه صاحب العمل على حائط كبير .

وماذا حدث له أيضاً ؟

فأجابها :

ـ وفد صديق آخر . تطلع في وجهي . لم يسألني . لعله خشي العاقبة . اتجه إلى صديقي الأول . . ـ « ماذا فعل ؟! » فوصله الرد . . ـ « استعاد حياته من أيدي الآخرين . » . . ثم جاء آخر . . وآخر ، وشكلوا من بينهم لجنة تتداول الأمر . بينما ابتعدت أنا إلى حيث الظلام .

وبعد ذلك ؟

أحس بيدها على كتفه . لا حاجة به للحديث . أمسك بيدها . لم تسحبها ، واقتربت من وجهه .

وماذا أيضاً ؟

ثنى رقبته قليلاً . وضع فمه على يدها . أحس بدمه يدغدغه بتفاهم . لم يقبل اليد ، اكتفى بملمس اللحم الغض على شفتيه .

ليتكلم!!

ـ كان الزمن واقفاً بالنسبة لي . كنت أعيش الحياة التي . . ـ « استعاد حياته من يدها . » . . وفجأة برزت زوجتي تحمل الطفلة . . ـ « اذا فهي

ستقاسمني الأطفال! » . . . عاودني احساس صغير بالانسانية
غريبة علي! » . . أنا جالس في الظلام . اجتازت الطريق ، ووقف
« أظنها تنتظر سيارة . . ستذهب لبيت أبيها ـ لم يعد بيتي بي
سيارة مسرعة . هي ركزت عينيها على الظلام ، ثم اجتازت الشا
ـ « أين أذهب!! » . . وبقيت مقيداً في مكاني . . وصلت إلي
بي إلى بيت أبي! » . . كيف أذهب بها ؟ . . لماذا أذهب مع
أتراجع . وعادت تلح بصوت أكثر اضطراباً . . ـ « اذهب بي لب
أفعل ، ولماذا أفعل ؟ . . هي غريبة عني رغم وجود الوجه الص
الصغيرة تنظر إلي بخوف . داخلي بدأ يتمزق . لعنت نفسي
ابنتي . . ـ « أنت تحبها أكثر من الولد! » ذاك ما كانت تقوله ز
في الماضي هي تلح بجنون . . ـ « اذهب بي لبيت أبي! » بة
جلستي . مدت يدها إلى ياقتي . مسند الأريكة منع هربي .
لبيت أبي! » . . ابتعدي عني . . ابتعدي . . أنا غريب عنك
بالطفلة على الأريكة وتشبثت بي . أصبح جسدها يلامس جس
يسمح . تملكني غثيان حاد . وددت لو أتخلص من قبضتها
بخارية مسرعة . . ـ « انظر . . أنظر . .! » قال سائقها ل
اتركيني!

وكف عن الكلام . شارلي شابلن يهرب من رجال الأمن .
تطلب اليهم ـ بالاشارة ـ الامساك به . الثوب الأزرق يسأله .

وماذا حدث له بعد ذلك ؟

ـ لماذا أتكلم ؟ . . أمن أجل أن تتحدثي إلى اختك وصدي
هو يظلمها! . . هـ . .

واحتبست الحروف في فمها . انزل يدها من على كتفه
ركبته . بقي ممسكاً بها . يدها ندية طيعة . وأتم :

ـ أنا لم أضع لنفسي مخططاً مستقبلاً وبداية . كل الذي فع

ستقاسمني الأطفال! » . . . عاودني احساس صغير بالانسانية . . ـ « الطريق غريبة علي! » . . أنا جالس في الظلام . اجتازت الطريق ، ووقفت قبالتي . . ـ « أظنها تنتظر سيارة . . ستذهب لبيت أبيها ـ لم يعد بيتي بيتها! » . . مرت سيارة مسرعة . هي ركزت عينيها على الظلام ، ثم اجتازت الشارع ناحيتي . . ـ « أين أذهب!! » . . وبقيت مقيداً في مكاني . . وصلت إلي . . ـ « اذهب بي إلى بيت أبي! » . . كيف أذهب بها ؟ . . لماذا أذهب معها ؟ . . أنا لن أتراجع . وعادت تلح بصوت أكثر اضطراباً . . ـ « اذهب بي لبيت أبي! » . لن أفعل ، ولماذا أفعل ؟ . . هي غريبة عني رغم وجود الوجه الصغير . . ابنتي . الصغيرة تنظر إلي بخوف . داخلي بدأ يتمزق . لعنت نفسي . لي حق هي ابنتي . . ـ « أنت تحبها أكثر من الولد! » ذاك ما كانت تقوله زوجتي ـ بحقد ـ في الماضي هي تلح بجنون . . ـ « اذهب بي لبيت أبي! » بقيت جامداً في جلستي . مدت يدها إلى ياقتي . مسند الأريكة منع هربي . . ـ « اذهب بي لبيت أبي! » . . ابتعدي عني . . ابتعدي . . أنا غريب عنك . لكنها ألقت بالطفلة على الأريكة وتشبثت بي . أصبح جسدها يلامس جسدي ـ الدين لا يسمح . تملكني غثيان حاد . وددت لو أتخلص من قبضتها . مرت دراجة بخارية مسرعة . . ـ « انظر . . أنظر . .! » قال سائقها للذي خلفه . . اتركيني!

وكف عن الكلام . شارلي شابلن يهرب من رجال الأمن . امرأة مكتنزة تطلب اليهم ـ بالاشارة ـ الامساك به . الثوب الأزرق يسأله .

وماذا حدث له بعد ذلك ؟

ـ لماذا أتكلم ؟ . . أمن أجل أن تتحدثي إلى اختك وصديقاتك غداً ؟!

هو يظلمها! . . هـ . .

واحتبست الحروف في فمها . انزل يدها من على كتفه ووضعها على ركبته . بقي ممسكاً بها . يدها ندية طيعة . وأتم :

ـ أنا لم أضع لنفسي مخططاً مستقبلاً وبداية . كل الذي فعلته أني وضعت

لنفسي نهاية . . المرأة زوجتي تبكي على صدري . . ـ « أين . . أين . . هي الورقة ؟! » ، الدين وضع نهايتنا . . ـ « اعطني اياها! » . . أبي أخذها . . ـ « أعطيتها لأبيك . . يا لك من مجنون! . . قبل شهر قال لي . . الطفل الذي ببطنك لقيط! » . . لكنه طفلنا . وكانت تتمتم . . ـ « لا أدري . . هو قال . ابني لم يكن مخموراً ـ كما ادعى ـ عندما طلقك . » . . دعيني اذاً! . . ـ « لا استطيع الابتعاد عنك . . أنا أحبك . . سأقتل نفسي » . . حسناً تفعلين . هيا واريحيني . . ـ « أنت لا تصدق!! » وألقت بنفسها وسط الطريق على الأسفلت . الطفلة القت بنفسها ـ أيضاً ـ من على الأريكة . الصغرى تبكي بفزع . التفت إلى الطفلة ، حملتها عن الأرض . لم تصمت . اقتربت من المرأة زوجتي . خشيت قدوم سيارة . توسلت إليها أن تنهض . . ـ « لن أفعل! » .

شارلي شابلن يتحدث ـ بالاشارة ـ مع فتاة الشارع . بعض الأطفال يراقبونهما عن كثب .

ليتمم ؟

سأله الثوب الأزرق بصوت يخنقه البكاء . أصابعها تشنجت على ركبته . نظر في عينيها . خط لامع يصل إلى زاوية فمها عبر خدها ، وابتسم . عليه أن يتم مهمة الكلام :

ـ جاءت سيارة من طرف الشارع . توسلت إليها أن تنهض . ذهبت الى حيث الرصيف . أجلست الطفلة هناك . عدت إليها . السيارة توقفت بأنوارها الكاشفة . الضوء يكاد يعمي عيني . أمسكت بها قوياً ، فاستعملت قدميها لأبعادي . الثوب انحسر عن فخذيها .

حول عينيه من الشاشة إليها . كان جسدها ينتفض .

ـ وعلى الأثر اجتاحتني حاجة مجنونة لأن أتقيأ . امعائي تتلوى في جوفي . السائق قدم نحونا . الضوء يرسم للأفخاذ ظلالاً كبيرة . امعائي تتلوى . هرعت إلى جانب الرصيف ، وتقيأت .

ولم يبك ؟!

ـ لا .

تضاعفت انتفاضات الثوب الأزرق . ومرت دقائق كان شارلي شابلن خلالها لا يعير النظارة اهتماماً . رغم البكاء، سمعها تقول :

هو لم يبك نتيجة الصدمة التي أصيب بها . . هو بحاجة إلى من يفهمه . .

ـ هي آسفة!!

● ●

ـ آه!

ندت آهة عن ركن الكوخ قطعت تسلسل أفكاره . ثم وصله صوت الضابط واهنا :

ـ ماء!

« عليك اللعنة! » بحث عن الحذاء بيديه الاثنتين . الظلام دامس . أخيراً وجده .

● ●

ـ كم هي الساعة الآن ؟

ـ في النصف الأول من الليل . . لعلها العاشرة . . أو أكثر .

فعاد الضابط يقول :

ـ يا له من مصير تعس!... أحس كما لو أن دهوراً مضت علي وأنا في هذا المكان!!

ـ . . . .

ـ تبدو ضجراً من التصاقي بك!

ـ بعض الشيء .

دهش الضابط ، غير أنه لم يخفها .

ـ ما السر ؟ . . هل بدأت تحبني ؟ . . أم تجاملني ؟

ـ بل أنافقك .

ـ علام ؟

ـ كي تصمت .

Tele: @Arab_books

١١

ـ متى يأتي النهار ؟

ـ بعدما تتم الأرض دورتها .

ـ أنا أتممت دورتي الخاصة .

ـ وأنا أدور بصورة عكسية .

ـ ألا زلت مصراً على الهرب ؟

ـ بلى .

ـ اذا فأنا قد حبستك إلى جانبي نهاراً كاملاً!

ـ أنا حبست نفسي . لحد الآن لم أتخذ قراراً قطعياً بالنسبة للمكان الذي سأتجه إليه .

ـ أنت لم تطلعني بالتفصيل على الأسباب التي دفعتك للهرب!

ـ ولن أفعل .

ـ لماذا ؟

ـ ولماذا أفعل ؟!

ـ لعلك تكرهني ؟

ـ ربما .

ـ اذا فلا يمكن أن تحبني!

ـ « تحبني! »

ـ أأنت تحبني ؟

ـ . . .

لم يجب على سؤال الضابط . لحظات ماضية تفرض نفسها عليه .

هو يحبها ؟ . . سؤال غريب . هو يكذب ، وهي تأبى الا أن تصدق . هو انتهى . سقط من القمة التي خلقها لنفسه ، وتربع عليها .

- أأنت تحبني ؟

وتلمست رقبته بحنان . « غريب! » الشيء المتعارف عليه ان الرجل يحب بسرعة ، والمرأة تحب ببطء ، أما الآن فالأمر على العكس . هو يكذب ويكذب وهي تصدق .

- أنت لا تبكي!

علام يبكي ؟

الانسان الذي يحزن لا بد أن يدرك رابطة تربطه بماضيه فيأسف عليه ، ورابطة بمستقبله فيبدأ بداية جديدة بعد أن ينفس عن عواطفه بالبكاء . أما هو فلا يجد مبررا للبكاء . ما عاد له ماض . هو قطع كل صلة له به . وسمعها تقول :

ـ أنا آسفة يا حبيبي! . . الأحرى بي أن أدرك مدى تعلقك بي قبل الآن!

لكنه حطام بشر . . ضائع

فأجابته :

ـ كلانا كان ضائعاً . أنا الآن وجدت نفسي!

كانت تتكلم بصدق وحرارة . أحس جسماً ناعماً على أذنه ، وأنفاساً دافئة على رقتبه . ود لو يقول . . هي تدفع كثيراً .

شارلي شابلن في احدى محاولات هربه من رجال الأمن .

عمله ليس بمجد .

ـ من ؟

سألته وخدها على خده .

شارلي شابلن .

نظرت في عينيه ، كأنها تطلب إليه العودة إلى واقعه .

ـ لماذا ؟

لأنه هرب ويهرب . . وسيبقى هارباً .

ابتسمت .

ـ لماذا ؟,

ابتسامتها لا تخلو من شيء يذكره بزوجته . فأدار رأسه .

ـ غضبت!

وامتدت يدها إلى ذقنه .

ـ غضبت!

عادت تسأله . نظر في عينيها . لم ير أثراً للابتسامة . بل على العكس .

ـ ألا . . ألا زلت غاضباً!!

واقتربت بوجهها . لم يفكر بأبعاد رأسه . غمره شعور بالاستعداد لشيء غريب .

اختلطت عليه الظلمة . شفاهها على فمه بلمسة خفيفة تشبه ملمس الحرير .

ابتعدت برأسها . لم تزايله الرعشة التي انتابته ، وبقي محدقاً في عينيها .

خيل إليه انها أطلقت زفرة .

ـ أيرضيك هذا ؟

واقتربت برأسها ثانية . أدرك أن عينيها لا تريانه ، وعاد الملمس الحريري على شفتيه .

هي تساومه على انسانيته!

ابتسمت قبل أن تجيب :

ـ حقاً! . . وسأشتريها .

واقتربت . ندت عنه حركة صغيرة للابتعاد . لكن قوة خفية الزمت رأسه مكانها . كان لسانها يبدأ حركة مرسومة من منتصف فمه إلى زاوية معينة لاتتغير ، وهمهم :

الدم يغلي في شرايينه!

ـ أليس ذلك لذيذاً!

هي تعطيه كثيراً!

فأجابت :

ـ ولا أبخس نفسي .

هي مجنونة!

ـ وأنت أحب مجنون على الأرض .

هي لا تدرك ما تفعل!

ـ ولا أريد أن أدرك .

هي تسقط!

ـ أود لو سقطت أكثر .

لا جدوى من عملها هذا!

ـ أليست الحياة لا مجدية برأيك!

هو شاذ . . حقير!

ـ يلذ لي تقويمه .

هو لن يسمح لأي انسان بتقويمه!

ـ سأسمح لنفسي بالسقوط معه .

لماذا تفعل هي ذلك ؟

ـ ولماذا لا أفعل ؟!

الدم يحترق على فمه . . هو نسي كل شيء!

ـ هذا ما أهدف إليه .

يود لو يأكلها!

ـ أموت لو لم تفعل!

ما عاد يذكر شيئاً!!

ـ ستذكرني أنا .

عملهما لا يعدو كونه نزوة عابرة!

ـ الحياة نزوة عابرة .

هي تتحدث بلسانه!

ـ وإلى الأبد .

هو لا أبد له!

ـ ليكن أبدنا في هذه اللحظة .

هو حرر نفسه من كل التزام!

ـ حررني معك .

هو لم يعد . . .

ـ «اش»

شارلي شابلن يختفي من على الشاشة . اغمض عينيه .

●●

ـ أأنت نائم ؟

ـ سأفعل .

ـ أنا لا أريد ماء!

ـ حسناً .

ـ أريد أن أتحدث!

ـ ليس الآن .

ـ قد أموت قبل الصباح .

ـ لن تفعل .

ـ ألن تستمع لي ؟!

Tele: @Arab_books

القسم الثاني

اليوم الثالث

Tele: @Arab_books

١

أحس الضابط تشنجاً في رقبته ، وكانت أشعة شمس الضحى تصل إلى وجهه عبر خوص سعف النخيل .

ـ جثة بدنسها!!

وانتقل بعينيه إلى الآخر :

ـ منذ يومين ونحن في جدال حول مشكلة الدفن . . ألا زلت مصراً على عدم دفني ؟

ـ بلى .

ابتسم الضابط :

ـ أتدري بأن خوفي من مواجهة الموت بدأ يزول ؟

ـ لا أدري .

ـ أليتي ما عادت تؤلمني بشدة . لا بد أن النتانة تمكنت من الجرح . . شيء عجيب هذا الألم! . . هو يمتد بامتداد عمودي الفقري . . أشبه بالصعقة الكهربائية . . هل جربتها ؟

ـ بلى .

ـ يبدأ من أعلى أليتي وينتهي في أسفل رقبتي . . قبل قليل كانت بي رغبة للبكاء .

لا يمكن أن أموت هذه الميتة الفظيعة! .

ـ وهل هناك ميتتان!!

ـ كيف لا! . . . أنت تتمتع بكامل قواك . ها أنت تنتظر موتي بفارغ الصبر لتفر إلى مكان مجهول .

واهتز جسده كأنه يشرع بالبكاء ، فجاءه صوت الثاني :

ـ أرجو ألا تضعف!

ـ ألا يمكنك حملي ؟

ـ لا .

فتوسل الضابط :

ـ بودي لو تذهب بي إلى المستشفى!

ـ لا . . ستموت قبل وصولنا .

ـ فكرت بذلك أمس . بيد أني أعلم تمام العلم بأنك ستعارضني الرأي . . أأنت تخاف السجن .

ـ . . .

ـ تخافه . . أليس كذلك ؟

ـ ولماذا هربت أنت ؟ . . علام قتلت جنوداً ثلاثة ؟ . . أليس ذلك خوفاًمن السجن ؟

ـ والموت .

ـ أنت تثير نقاشات لا مجدية!

ـ دعنا من فلسفتك . . بودي لو تخلصت من هذا الظهر اللعين! . . لا يمكنك أن تدرك مدى العذاب الذي أعانيه . . ليس ألم الجسد بل الخوف من الموت!

ـ قبل دقائق كنت لاتخافه!!

ـ كنت أخادع نفسي . . هلا ذهبت بي للمستشفى!

ـ ستموت هناك بضجة وتموت هنا بهدوء .

ـ لكني سأدفن هناك على الأقل!

ـ وكيف ستعرف بأنك دفنت . . أم لا ؟! . . ستكون قد انتهيت . لن تكون هناك رصاصة بأليتك . ستبقى الرصاصة في جثة نتنة أما أنت فتكون في خبر كان .

ـ حقاً! . . أنه لشيء جميل!

●●

ـ أنت لم تأكل برسيماً منذ البارحة!

فأجاب الضابط :

ـ أريد بعض الماء فقط!

ـ سآتيك به ، ولكن ألم يخفف البرسيم آلام معدتك . . بعد أكل الفجل ؟

ـ لا . . أريد ماء فقط!

نهض الثاني من جلسته واتجه إلى ركن الكوخ . رفع حذاء ثقيلاً وقربه من أنفه .

ـ الرائحة الكريهة وصلت الحذاء!

ابتسم الضابط ، وقال :

ـ ليس بسببي طبعاً . يمكنك استعمال الحذاء الذي تحافظ على نظافته .

ـ سأستخدمه للابتعاد عن برازك .

ـ برازي!!

ـ أعني جثتك .

وخرج . شاهد فلاحاً عن بعد . مطّ شفته لا مبالياً ، وانحنى على الماء . «مذ كنت طفلاً وأنا أحب الضفادع . كنت أخرج عصر كل يوم ، واتجه صوب النهر الذي ـ كان ـ يلتف حول مستشفى البصرة . . .» وتطلع من حوله ، فوقعت عيناه على ضفدع في الجانب الثاني من الجدول . غرس أصابعه في الطين واستخرج كمية منه . قفزت الضفدع وغاصت . «في الماضي ما كانت تستطيع الافلات . كنت أسدد ضربتي بمهارة مستعيناً بالحصى لا بالطين .» وتتبع بعينيه خط الماء ريثما عثر على ضفدع ثانية . «كانت تتمطى بقوة ـ

بعد ضربي إياها ـ ثم تنقلب على قفاها . يا لها من بطن بديعة بيضاء! . . كنت أود لو أستطيع رؤية أعضاءها الجنسية كما فعلت مع ابنة الجيران . كانت سرة ابنة الجيران أول ما لفت نظري . بل لقد دهشت ، وتساءلت ـ وقتها ـ عن السبب الذي من أجله لم توضع الأعضاء الجنسية مكان السرة . . ليس هنا! . . ليس هنا! . . » ملأ الحذاء وعاد أدراجه . توقف عند مدخل الكوخ .

ـ ماذا تفعل ؟!

لفت نظرُه ارتفاع العجيزة الكبيرة عن الأرض ، وجاءه الجواب :

ـ أتبول .

ـ تتبول!! . . لم لم تطلب مني أن أساعدك! . .

فأجاب الضابط :

ـ لا أستطيع التزحزح عن مكاني! . .

وازدرد لعابه ، قبل أن يستطرد برجاء :

ـ عليك أن تطهر جثتي بعد موتي!

دفع إليه بالحذاء .

ـ ولماذا أفعل ؟

ـ لا أستطيع مواجهة ربي بهذه النتانة!

ـ تواجه ربك!! . . جثتك لن تفارق الكوخ إلا بمساعدة انسان أو حيوان .

ـ أنت تزعزع إيماني!!

ـ حقاً . . .!

Tele: @Arab_books

٢

ـ . . . هذه الأسباب وحدها غير كافية ، لا بد من وجود سبب مهم!
تساءل الضابط ، فكانت الاجابة :
ـ كنت أعمى!
قال ، وأدنى عود البرسيم من وجهه سامحاً لجسده بالميل إلى الخلف حيث اتكأ بكتفه عل الجذع الذي يقف منتصباً عند مدخل الكوخ ، وعاد صوت الضابط يصله بحشرجة لا تخلو من حيوية :
ـ كنت أعمى! . . ليس بالعذر الوجيه . أنت قلت . . . ـ أبي اضطرني للزواج بالقوة . . حسناً له بعض الحق . تصرفاتك المريبة مع الفتاة العجفاء أثارته ، خشي عاقبة اندفاعك . .
« الذنب ذنبي . . لو لم أتبسط معه بالحديث!! . . ها هو يحاول اصدار أحكامه! »
تلك الأثناء ندت آهة عن المصاب أعقبها بقوله :
ـ عليه اللعنة من جرح!! . . رائحته باتت تزكم أنفي ، بدأت النتانة تظهر بوضوح على جسدي وأنا حي .
التزم الآخر الصمت . كان يقطع وريقات البرسيم المحملة بالوحل ـ من الأعواد .
ـ لم لم تغسله ؟

ـ بالماء الآسن!

دس الأعواد في فمه ، ثم استطرد :

ـ خير من الفجل . افتقدنا آلام الغازات . بودي أن أحصل على قليل من أعواد التبن كي أخلطها معه ، سيكون خليطاً رائعاً .

فتساءل الضابط :

ـ هل طعمه لذيذ ؟

ـ بالنسبة للحيوان . . نعم . ألا تريد بعضاً منه ؟

أطلق زفرة .

ـ الأكل لن يغير من نهايتي . . لأموت خالي البطن!

ـ فكرة لا بأس بها .

والتقط أعواداً أخرى ، بينما قال الضابط :

ـ العجفاء كانت تحبك ، ولها دخل لا بأس به ـ كما قلت البارحة ـ علام لم تتزوجها قبل أن تتورط بالزواج من الأخيرة ؟

ـ لأنها عجفاء .

ـ لعلها تسمن بعد الزواج!

ولم أكن أحبها .

ـ لعلك تفعل بعد الزواج!

ـ لولا وثوقي من موتك القريب لما تحدثت إليك . . على كل اسمع . . فكرت في ذلك ، اقنعت نفسي بالزواج منها . لكن أبي رفض ، رغم أننا عرضنا عليه الفكرة معاً .

ـ لماذا ؟!

ـ لاعتبارات دينية .

ـ هل هي غير مسلمة ؟

ـ بلى .

ـ أحد كما اذاً مجنون!

بدأ الضيق يشوب صوت الآخر ، رغم ذلك همهم :

ـ قلت لك . . مختلفة عنا مذهباً .

لم يأبه الضابط للهجة الضيق ، واستطرد :

ـ وبقيت على علاقتك بها رغم معارضته ؟!

ـ مادامت تسمح لي باشباع جنسي .

ـ لندعها جانباً . . أبوك خطب لك زوجتك . .

ـ وأمي أيضاً . . هما اقتسما المسؤولية .

ـ لعلك رأيتها قبل الزواج ؟

ـ ولا بعده .

ـ أنت مجنون!

ـ . . . . .

ـ أنت مجنون!

ـ أنا أعمى .

ـ وبعد ؟

ـ أنعمت علي زوجتي بالابصار بعد أسبوع من الزواج الموضوع .

ـ أرأيتها وقت الخطبة ؟

ـ ولا بعدها .

ـ وعند عقد القران ؟

ـ أضربت عنه . . أبي فعله نيابة .

بان الجد على وجه الضابط بوضوح .

ـ هات بعض البرسيم! . . أنت تستحق أن يُعاش من أجلك ساعة أخرى!

ابتسم الآخر ، وعقب :

ـ لا أصدق!

ـ ماذا ؟

ـ . . . أنت تهتم بشؤون الآخرين!

التمعت نظرة فرحة في عيني الضابط ، وأطلق ضحكة صغيرة .

- وكيف وافقت على الاقتران بها بعد ذلك ؟

- أبي فعل ذلك أثناء غيابي .

- أعني . . زواجك بها ؟

- هه! . . بعد عقد القران بأسابيع استطاعت أمي اقناعي بمحاولة الاختلاط بها ، فإن لم تعجبني . . . . - « سنجد لك حلاً . » ذهبت إلى منزل العروس . هي فتحت الباب . لم تعرفني بالطبع . وكذلك أنا . - « ماذا تريد ؟ » خيل إلي أنها غاضبة . « أنا . . أنا . . » رفعت حاجبيها . . - « أنت . . ماذا ؟! » تركت فمها مفتوحاً عن أسنان أحسن تنضيدها . أخبرت أمي بالأمر فضحكت . . - « صفها لي! » عقدت حاجبي . . . . - « . . متوسطة الطول . دقيقة القسمات . ترتدي ثوباً فاقع الاصفرار . . » أمي - أيضاً - عقدت حاجبيها . . - « هل أعجبتك ؟ » . . - « لا بأس بها . » ضحكت أمي . . « سأذهب معك . . » وكان أن ذهبنا إلى السينما ذلك اليوم .

ثم تناول بعض أعواد البرسيم .

- دع عنك الأكل . وبعد ؟

- ولما ضمتنا احدى مقصورات سينما الوطني تجرأت بالتحدث إليها : - « لم أعرفك اليوم! » . . - « . . » فتشجعت أكثر : . . - « ما كنت أظنك على هذا الجانب الكبير من الجمال! » . . - « . . » لم يردعني صمتها . . - « من يصدق بأننا سنتزوج دون أن يعرف أحدنا الآخر!! » وفجأة التفتت إلي : . . - « قالوا عنك . . زوجك أعور . » صفعني قولها ، واستطردت : . . - « هم يكذبون . . عيناك جميلتان . » تنفست الصعداء ، ومددت يدي لأمسك يدها .

- وبعد ذلك ؟

- تزوجنا .

ابتسم الضابط ، وقال :

ـ ليس في السينما طبعاً!!

ـ بالطبع لا . جدتها أصيبت بمرض مفاجىء في اليوم التالي . أبوها قال : . . « خذوا زوجتكم قبل فوات الفرصة ، سأمنعها عن الزواج سنة لو توفيت أمي » . . أبي سألني عن رأيي . أنا ترددت .

ـ وبعد ؟

ـ عقلي كان من انصار الانتظار ، ووسطي على العكس . فخذاها المكتنزان عاشا في رأسي ليلة بطولها . . .

ـ كيف أطلعت على فخذيها ؟!

ـ هي زوجتي .

ـ كانت . . . ولكن ليس في السينما .

ـ لك حق . . فخذاها جميلان لولا البقعة الداكنة التي تركتها المدفأة منذ عامين .

ـ بقعة داكنة!!

ـ من عادة زوجتي شتاء أن تحتضن المدفأة النفطية وتلقي بثوبها عليها .

ـ لماذا ؟

ـ كي تحصل على كمية أكبر من الدفء .

ـ عادة غير مستحبة!

ـ بالعكس . عملها يسعدني .

ـ عجيب! ـ كيف ؟

ـ أبدلت الفتيل القديم بآخر طويل عل النار تشتعل بثيابها . .

ـ هه . . هه . .

ـ لكن أمي هي التي احترقت .

ـ هه . . هه . . كيف ؟!

اعتدل الواقف ، واطل الغضب من عينيه .

ـ عجيب ! . . وماذا تريد ؟

بان اليأس على وجه الضابط . فغير الآخر من لهجته :

ـ لندع أمي جانباً مادمت ستموت قريباً . . أنت سألتني . . « كيف أطلعت على فخذيها . » وفخذاها هما سبب موافقتي حسب رأيك .

وصمت ريثما حشر عوداً من البرسيم في فمه .

ـ . . بعدما أطفأت الأنوار . . شارلي شابلن . .

بيد أنه سارع إلى طرد الخيال الأزرق واستطرد بتصميم :

ـ اقتربت برأسي منها . ابتعدت عني . حاولت . ابتعدت . اخترت أسهل السبل . مددت قدمي وطوقت قدمها . لم تعارض . ربما خشيت اغضابي . ثم تجرأت فاحتضنت ساقها . . ـ « لا أفهم الفلم!! » مددت يدي إلى رقبتها . هي زوجتي . . ـ « ماذا تريد! . أبعد يدك! » . . ـ « اش! » . . فازداد ارتفاع صوتها : . . ـ « قلت لك . . أبعد يدك! » أبعدت يدي . اكتفيت بنصفها الأسفل . عارضت رفع الثوب ، فلجأت إلى ما فوقه ، ولم يطل بي الوقت . . .

ـ أتعني . . أنك رفعت الثوب . . أم . .

فجاءه الجواب بحركة من الرأس ، وعاد يسأل :

ـ وتلمستها ؟!

هز الآخر رأسه أيضاً .

ـ وصعدت إلى أعلاهما ؟!

ـ وماذا في ذلك ؟

ـ جريمة!

ـ جريمة ماذا ؟! . . هي زوجتي .

ـ بمجرد أن أعجبتك . . أنت كنت رافضاً من أول الأمر!

ـ لكن أبي لم يرفض .

ـ أبوك! . . أبوك! . . دعه يتزوجها نيابة عنك!!

صمت الثاني برهة ، قال بعدها :

ـ الدين يسمح بذلك . هو عقد القران على أبيها نيابة عني وعنها . ثم

اجرى تسجيل العقد رسمياً باسمينا .

ازدرد الضابط ما في فمه وقال بضجر :

ـ ناولني بعض البرسيم . . أنت تثيرني لدرجة لا تحتمل . . لدرجة تدفعني للتمسك بالحياة!

تناول الأعواد ، واستطرد سائلا :

ـ وأبوها . . هل هو جميل الوجه ؟

ـ لماذا ؟

فأجاب الضابط :

ـ لا شيء . . فقد أردت التعرف على ذوق أبيك .

ـ أبي أعمى .

ـ كلكم عميان!! . . ناولني برسيماً أكثر!

Tele: @Arab_books

٣

أمسك بالرأس الضخم ورفعه .

ـ عليك اللعنة!

ابتعد بفخذه قليلاً عن الرأس ، ثم تركه يسقط .

ـ آه!

سقط رأس الضابط على أرض الكوخ الهشة .

ـ أنت تغضب بسرعة! . . ضعفي الجسدي يسمح لك بالانطلاق مع عواطفك إلى أقصى حدودها .

ـ اخرس!

وانتصب واقفاً .

ـ يمكنك قتلي الآن!

ـ سأقتلك لو أردت أنت ذلك ، وسأعرف متى تريد ذلك حتى لو لم تصرح به .

ـ يبدو أنك لا زلت تحمل بعض العواطف الانسانية ؟!

ـ ما أنكرت ذلك .

ـ بل فعلت!

ـ فعلت على ما هو مرسوم .

ـ اذاً . . القضية لا تعدو كونها ثورة!

ـ سمها ما شئت .

ـ ما دام الأمر كذلك فعليك المسارعة بسحب غضبك . عليك إرجاع الحق الذي كسبته أنا!

ـ ماذا كسبت ؟

ـ صداقتك . أنت ألقيت برأسي على الأرض . أنا لا أستطيع الدفاع عن نفسي . أنا كسبت صداقتك رغم حالة الجنون التي تتمسك بك . كسبتها بطريقة سلمية مشروعة . لا تقل . . أنا عطفت عليك . . أنت تكاد لا تعترف بالعواطف الانسانية . أنا كسبت صداقتك سلمياً . . وبجدارة . هيا!

ـ لن أضع رأسك النتن على ساقي .

ـ لماذا ؟ . . ألأنه يذكرك بالانسان ؟

ـ سمها ما شئت .

ـ لكنك انسان .

ـ سمني ما شئت .

ـ أأنت مصر على رأيك ؟ . . ما فعلت شيئاً يستحق كل هذا الغضب ؟

ـ وأكثر .

حاول الضابط رفع احدى يديه ليعدل من وضع رأسه ، بيد أنه أخفق .

ـ أنت مجرم! . . كل الذي قلته . . .

ـ سآتيك بالماء .

ـ لا أريد ماء!

ـ أنت لا تعرف ما تريد

وخرج . « وعاء متناقضات! » . انحنى على الماء . ضفدع قريبة لم تكف عن النقيق . « الضفادع كثيرة في السيبة ولايقابلها غير رجل واحد! »

ـ اخرسي!

أدنى الحذاء من الماء . « حذاؤه يكفي لاعالة عائلة فقيرة شهراً كاملاً! »

ـ يكفي عند هذا الحد!

« لا زال كعبه قوياً! » الضفدع لا زالت تنق . تملكته رغبة للهجوم عليها . ألقى بنفسه في الماء . برودة الأخير انعشت حواسه .

ـ أين أنت ؟

الضفدع غادرت مكانها ، ووصله صوت الضابط :

ـ مابك ؟

« صوته لا زال قوياً! » وأجاب :

ـ لا شيء . . الضفدع هزمتني .

ـ الضفدع!!

« سيبقى ـ إلى الأبد ـ مندهشاً . . حتى بعد موته! »

استوى خارجاً . « وسيندهش عندما أزهق روحه . »

● ●

ـ ماذا بك ؟! . . أين الماء ؟!

جوبه الضابط بالصمت ، وعاد يتساءل فزعا :

ـ عيناك غريبتان!

ـ سأؤدي المهمة .

ـ أنت مجنون! . . أية مهمة ؟!

ـ ستراها .

ـ ماذا تفعل . . سيقتلني الحذاء!!

لكن الآخر سدد الضربة « تحركت يداه! . . »

ـ لماذا تخاف على رأسك فقط ؟

ـ آه! . . كسرت رأسي . . مجرم!

ـ لماذا تخاف عليه ؟ . . ألأنه القوة المسيرة ؟

ـ كسرت يدي يا حقير!

ـ خذ الرأس ولي الباقي .

سأصرخ لو اقتربت!!

ـ حقاً!
وانحنى على جسد الضابط ، مستطرداً :
ـ لماذا تصرخ ؟ . . ستموت أولاً وأخيراً .
رقت لهجة الضابط :
ـ يمكنك أن تذهب . . لا تدع وجودي يقيدك .
ـ أمس طلبت مني أن أضع نهايتك بيدي ، وأرجأت أنا العمل إلى اليوم .
ـ أبعد يدك . . لا تقترب!
ـ أنت لا تعرف ما تريد .
ـ . . . . .
أمسك بالرقبة الضخمة . الأصابع الواهنة تتشبث بيديه .
ـ أتوسل إليك لا تقتلني!!
ـ قل . . لا ترحني
ـ لا ترحني!!
ـ لماذا لا ؟
ـ من أجل أطفالي!!
ـ أطفالك! . . أنت بعت الآخرين بمعية أطفالهم!
ـ ليس من أجل الأطفال . . من أجل زوجتي!
شاعت ابتسامة في وجه الجالس ، وضيق قليلاً من قبضة أصابعه .
ـ طلقها .
ـ سأطلقها .
شد من أصابعه .
ـ طلقتها . . بالثلاث . . طلقتها . . أرفع يديك عن رقبتي .
أرخى من أصابعه قليلاً .
ـ ألا تؤمن بالآخرة ؟
ـ بلى . . بلى والله أؤمن!

ـ كيف تطلق زوجتك اذن ؟! . . ستبقى هناك بلا زوجة!
ـ من أجلك أتنازل عنها!
ـ من أجلي أنا . . أو من أجل دقائق تعيشها ؟
ـ سمها ما شئت .
ـ بدأت تستعير كلماتي!
ـ أنا آسف!
ـ آسف . . آسف . . هه
وشد من أصابعه .
ـ أليست الآخرة هي الحياة الخالدة ؟
ـ بلى والله . . لكنك تقتلني!
ـ سأعجل بذهابك إليها!
ـ لا أريد أن أذهب . . لا أريد!
ـ غريب!! . . لماذا ؟
ـ لا أدري . . لا أدري!
ـ أتؤمن بأني قادر على زهق روحك ؟
ـ نعم . . فقط الآن!!
خف ضغط الأصابع ، ثم تحررت الرقبة تماماً .
ـ هذا ما قصدت إليه!
رفع الضابط ـ لأول مرة منذ اليوم ـ رأسه ، وبجهد انقلب على بطنه . ركز ذقنه على ذراعه . كان الخوف يطل من عينيه . اقترب الآخربرأسه منه :
ـ مجنون! . . أليس هذا ما تقوله لنفسك
تجاهل الضابط السخرية الموجهة إليه ، وجمع أطراف شجاعته :
ـ ماذا قصدت ؟
ـ أن أثبت لك عدم إيمانك .
ـ إيماني!!

فأجاب الآخر بتسليم :

- أنت لست مؤمناً! . . كنت لا تتورع عن بيع إلهك لقاء دقائق معدودة تعيشهامعذباً!

عقد الضابط حاجبيه :

- حقير! . . كنت تجري تجربة! . . ساومتني على إيماني!

- وأنت بعته لي .

- في الضرورات تباح المحرمات .

- عذر مقبول بالنسبة لرجل مشرف على الموت!

- الله غفور رحيم .

- أتقنعني ؟ . . أم تقنع نفسك ؟!

- ذاك ما ورد بالنص .

- والنصوص الأخرى ؟! . . «اثنان لا تقربهما الشرك بالله والاضرار بالناس .»

- هو غفور رحيم!

- لكنهم ما فعلوا مثلك!

- من هم ؟

- المسلمون عامة ، والأوائل خاصة . كانت قريش تعذبهم حتى الموت ، بينما هم أصحاء يطمعون بحياة خمسين أو أكثر ، كانت ألسنتهم - رغم العذاب - لا تكف عن ذكر الله . هم ما باعوا ربهم بحياة خمسين سنة ، وأنت بعته بساعات!

- ألأنت الذي يدافع ؟!

- أنا لا أنافق .

- قبل قـ.ـن ألقيت برأسي وتملكك غضب مجنون بمجرد كلمة قلتها . . .

- ماذا قلت أنت ؟

ضيق الضابط من فتحة جفنيه محاولاً التذكر ، ثم قال :

ـ أظنني قلت . . الانسان الملحد مجرم بالفطرة . .

ـ لم أغضب من هذه . بل تذكر الكلمة الأخيرة!

ـ «ها» . . الانسان الملحد يفتقر الى راحة الضمير والثقة بالنفس .

ـ هذا أمر مفروغ منه بالنسبة لمن مثلك . ليست هذه . . تذكر الأخيرة!

ـ أظنها . . . الذي لا يؤدي الفرائض الخمس ليس بمسلم .

ـ ذاك ما قلته أنت بالحرف .

ابتسم الضابط ، وقال :

ـ أهذا ما أغضبك ؟!

ـ ليس تماماً . . لكن لهجتك كانت تبايعني انسانيتي .

ـ كيف ؟!

ـ كانت تشير إلى جميع الطيبين وتحمل شعار جميع الحاقدين ، كنت سأثبت لك كونك ملحداً .

بانت الدهشة والانزعاج على وجه الضابط .

ـ كيف ؟

ـ أكنت تصلي ؟

ـ منذ أكثر من عشرين سنة . عدا الأيام التي تلت الانقلاب الأخير .

ـ قل الثورة الأخيرة!

ـ حسناً . . . الثورة الأخيرة .

ـ وهل كنت تصوم ؟

ـ منذ أكثر من عشرين سنة أيضاً عدا النصف الثاني من رمضان هذا العام .

ـ لماذ انتقصت الشهر ؟

ـ مشاغلي كثيرة .

ـ وشغلتك عن ربك ؟!

ـ ليس تماماً . . . أطعمت الكثير من المساكين لقاء افطاري .

ـ هل هي عملية مقايضة ؟! . . أطعمت المساكين ومعدتك البرجوازية بمعيتهم . . أليس كذلك ؟

ـ . . . . .

ـ قل . . أليس كذلك ؟

ـ كذلك .

ـ أفطارك كان عن عمد . . أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ من أفطر يوماً متعمداً فكأنما . . . أكمل!

ـ لا فائدة!!

ـ لندع هذه . . . ومن قتل نفساً متعمداً فكأنما . . . أكمل!

ـ قلت لك لا فائدة . . . قتل الناس جميعاً .

ـ أرأيت الآن ؟

فتمتم الضابط :

ـ اذا . . أنا الآن لست مسلماً حسب رأيك ؟!

ـ أكثر ، . أنت منافق ، . خسيس ، . جبان ، . هذا بعض من كثير . هناك السلطة التي اسأت استعمالها . . الشعب الذي لعبت بمقدراته . . .

ـ على هذا الاساس نكون متساويين ؟

ـ خسئت!

ـ أتعني بأنك أكثر إنسانية مني ؟!

ـ رغم عدم اعترافي بها .

سادت لحظات صمت . ألقى بعدها الضابط رأسه على الأرض باستسلام متعب .

ـ مادمت قد اكتشفت حقيقتي يمكنني أن أبدأ من جديد .

ـ هه! . . بعد فوات الأوان! . . ها ، أنت تعلن براءتك! . . أنت لن تعيش لكي تبدأ من جديد .

ـ الله غفور رحيم!

ـ ولنا كذلك .

ثم اقترب من الضابط ، ثنى ركبته ، وأمسك بالرأس الكبير بين يديه .

ـ رأسك ضخم!

ـ سأتنازل لك عنه .

ـ كنت قد تنازلت عن زوجتك قبل قليل!

ابتسم الضابط بود :

ـ ألا زلت تكرهني ؟!

ـ « اش »

وضع الرأس على فخذه ، وبدأ يداعب شعره الأشعث ، ثم قال :

ـ أتعلم بأنك أحسنت إلي ؟

فتساءل الضابط بدهشة :

ـ كيف ؟

ـ عليك أن تلجأ ـ الآن ـ إلى الراحة .

Tele: @Arab_books

٤

صه!

ووضع كفه على فم الضابط مستطرداً :

ـ لا تجهد نفسك بالحديث كثيراً ، وقواك . . علك تعيش حتى الفجر .

ـ هممم . . م .

ـ بالأمس قلت . . «لا أريد الموت في الظلام .!»

ـ همم . . م .

رفع يده ، فانطلق صوت الضابط محتجاً بود :

ـ أنا قلت ذلك ؟!! . . لا أكاد أذكر! . . فقط أذكر كلمتها الساخرة . . «أتخاف أن لا يتعرفوا عليك ؟!»

ـ لم تكن ساخرة .

أدار الضابط دفة الحديث :

ـ أنت أفزعتني ظهر اليوم . . عندما حاولت قتلي!

ـ كانت مناقشة متعادلة . . لم لا أقتلك الآن ؟

ـ أنت لن تسافر الآن . انتظر حتى الصباح . .

وضحك مستطرداً :

ـ يخيل إلي أن التسمم تصاعد إلى وجهي . لعله صار أزرق اللون .

ـ ليس كثوبها .

ـ ثوبها!

انتبه الآخر لما أفلت من فمه .

ـ دع عنك هذا .

فتساءل الضابط :

ـ أهي زوجتك ؟

ـ . . .

ـ هل طلقتها أيضاً ؟

ـ أنا لم أتزوجها .

ارتسمت دهشة على وجه الضابط :

ـ عمن تتحدث إذاً ؟!

ـ عن الثوب الأزرق .

ـ الثوب الأزرق!! . . مابه ؟

ـ جسد غض لمعلمة غضة .

ـ تكاد تجنني!! . . أهي عجفاء ؟

ـ قلت لك غضة . . لكنها عجفاء من العقل .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها حاولت خلقي من جديد .

ـ والنتيجة ؟

ـ تقيأتَها!!

ـ كما فعلت مع زوجتي .

ـ أتعني بأنك حررت نفسك منها ؟

ـ تقريباً .

ـ لماذا تقريباً ؟

ـ لأني اشتهيتها . . رغبت بها ثانية .

ـ ثانية! . . منذ متى ؟

ـ منذ نقاشنا المتعادل .

ـ إذاً . . فأنا قد أثرت فيك ؟!

ـ كما فعلت هي .

صمت الضابط برهة ، خيل إليه أن صاحبه بدأ يضيق بأسئلته ، لكنه جمع أطراف شجاعته :

ـ ألن تعود إليها ؟

ـ لا .

ـ لماذا ؟

ـ اخرس!!

مال الضابط برأسه قليلاً وهمهم :

ـ أتخاف أن تضعف ؟!

ـ ألا تخاف أن أقتلك ؟!

ـ ليس قبل الفجر .

خفض الآخر من حدة صوته .

ـ قبل قليل قلت . . « لا أخاف الموت في الظلام! »

ـ عدت أخاف .

ـ كيف ؟

ـ لأن خالقي ضعف .

فاحتج الآخر :

ـ أنا لم أضعف!

ـ بل ضعفت . تهربك من أجابتي كشف عن خفايا نفسك! . . غضبك مني صادر عن غضبك من نفسك! . . أأنت تحبها ؟

ـ . . . .

ـ صمتك يرمز إلى قبولك . . يجب أن تعود إليها!

ـ أنت تهرف!

ـ يجب أن تبدأ مع الثوب الأزرق كما ستنتهي الآن من الجثة الزرقاء . أنت لم تحدثني عن ذات الثوب الأزرق .

لكن صمتك عنها يشير إلى مدى ارتباطك بها . أنت حدثتني عن كل شيء انتهيت منه ، أما هذه فلا . هي لا زالت تشدك إليها .

ـ . . . . .

فعاد الضابط يستطرد :

ـ أنت فتحت عيني . دفعتني لأن أبدأ من جديد . كان الأحرى بك أن تفتح عينيك!

ـ هلا صمت!

ـ ألأني أتحدث نيابة عن الصوت الذي في داخلك ؟!

شارلي شابلن يصر على الظهور أمام مخيلته .

ـ لا أدري!!

ـ أنا لاأعرفها . . غير أني أعرفك .

ـ أنت لا تعرف ما حدث!

لم يأبه الضابط ، وقال :

ـ لكل مشكلة حل الا الهرب من الحياة .

ـ أنت لا تدري .

ـ أنا بدأت من جديد عن طريقك . أليس الأحرى بك أن تبدأ مع نفسك ؟!

ـ أنت وقفت . . وكفى .

ـ أنا وقفت بعد فوات الأوان ، وأنت لم يفت أوانك بعد!

ـ فات .

ـ ولكن . . .

فقاطعه الآخر :

ـ فات .

والتزما الصمت . نور القمر يتسرب عبر السعف . ويرسم على وجه

الضابط ظلالاً تـزيد من احتقان لونه . عدل الجالس من وضع الرأس الكبير على فخذه ، قبل قوله :

ـ أتدري ؟ . . لأول مرة أحس حاجة للدفاع عن نفسي تجاهك!!

ـ أدري .

مرر أصابعه خلال الشعر الأشعث .

ـ ألا تود سماع مرافعتي للدفاع ؟

فأجاب الضابط :

ـ لا .

ـ كلب!

ـ ليس هذا هو السبب! . . نهايتي باتت قريبة . أود سماع قرارك الأخير!

ـ قراري الأخير هو الرفض . . مت إذاً!

ـ أنت الخاسر!

ـ من البداية .

ـ وأنت هارب!

ـ إلى النهاية .

ـ بدأت تستعير كلمات نجيب محفوظ!

وضع كفه تحت الذقن الخشنة ، وردد بدهشة :

ـ وتقرأ الأدب أيضاً! . . أنت مجنون!

ـ يا للعجب! . . أأنت العاقل ؟!

ـ لا أظن ذلك .

ـ لا تـ . . .

وانتابت الضابط رجفة قوية كاد رأسه يسقط خلالها لولا اسناد الثاني له .

ـ دنت نهايتي . . ما هو قرارك الأخير ؟

ـ الرفض .

ـ حتى متى تظل هارباً ؟! . . أنت مخطىء!
ـ لعلي . . لكنك لم تسمع دفاعي .
فقال الضابط :
ـ سأموت قبل أن تتم!
ـ لن تموت حتى أفعل .
ـ أتظن ذلك!
ـ اجزم به .
شاعت ابتسامة في وجه الضابط ، وقال :
ـ آتني بقليل من الماء اذن!
ـ ها هو .
ومد يده الى الحذاء القريب فاحتج الآخر :
ـ هذا الحذاء صار كريه الرائحة . . .
وتململ إلى الوجه الجالس ، قبل أن يتم بتسليم :
ـ حسناً أنا بأجمعي كريه . قرب الحذاء من فمي . . لا ليس من مقدمته! . . متى تتعلم ؟! . . مائة مرة قلت لك . . قربه من مؤخرته!

●●

ألقى بالحذاء .
ـ ستكون المرة الأخيرة!
ـ ربما . . . ولكن لا تضيع الوقت أرنا دفاعك!
ـ سأتكلم . اياك والأسئلة! . . سأشرح شرحاً موجزاً . . قبل أن أطلق زوجتي . .
فقاطعه الضابط :
ـ للمرة . . كم ؟
ـ لا تقاطعني!
ـ أردت أن أثيرك .

وابتسم .

ـ قبل ذلك بأسابيع زارتنا زمرة من أقربائنا .

ـ زمرة!

ـ قلت لك لا تقاطعني!

ـ تعابيرك غريبة!!

ـ لا تتغابى! . . كانوا يقدمون بين . . بالأحرى في فترات متباعدة . قدموا تلك المرة وبصحبتهم فتاة جميلة . قدمت نفسي لها كقريب لها . . عمتها فلانة ابنة عم أبي . . هي كانت ترتدي ثوباً أزرق . .

ـ أزرق!

ـ قلت لك لا تقاطعني! . . أنت تضطرني لاتخاذ اجراء . . أتسمح!

وسارع بوضع يده على فم الضابط ، واستطرد :

ـ ذات الثوب الأزرق أبدت اهتماماً كبيراً بمكتبتي . قلبت جل كتبها . أثناء عملها ـ الذي ازعجني وأسرني في آن واحد ـ عثرت على كراسة صغيرة . ألقت عليها نظرة سريعة . . ـ « تبدو قصة! » هززت رأسي موافقاً وبي غرور حلو . . ـ « أأنت كتبتها ؟ » . . ابتسمت مجيباً . . ـ « اتسمح! » قبل أن أرد انتبذت بها ركناً ، وبدأت تقرأ . بعد قرا . . .

ـ أم م . .

الضابط حاول أن يحتج ، وأتم الثاني :

ـ كان ذلك هو اللقاء الأول بيني وبينها ، ثم تلاه آخر بعد أسبوع . .

ـ أم م . .

ـ حسناً سأختصر . في اللقاء الثاني توطدت علاقتها بكراستي ، وعلاقتي بها أكثر ، كنت معجباً بجمالها أولاً ، واهتمامها بي ثانياً ، علاوة على الثقافة التي تتمتع هي بها ، في . . .

ـ أم م . .

ـ ها أنا أختصر!... بعد الزيارة الأخيرة قمت أنا بزيارتهم بمعية أختي .

زوجتي كانت قد هجرتني لثمانية أيام . اعتذرت مبرراً سبب تغيبها عن الحضور معي... ـ « أمها مريضة... أرسلت بطلبها . » غياب زوجتي سمح لي بالانطلاق بعيداً . استطعت كسب صداقتها وثقتها يدفعني كرهي لزوجتي للسير في طريق لم أرسمها مع سابق تصميم ، ثم افترقنا . بعدها بأيام أعلنت الثورة...

ـ أم م . .

ـ الثورة التي أعلنتها أنا ، لا أعني الثورة التي أطاحت بالكرسي خاصتك . تركت البيت هرباً من الأسئلة ونظرات الفضول ورثاء الآخرين إلى بيت أختي الكبرى . أختي تلقتني بسؤال واحد وصمتت . كنت أظن أني ظفرت بالراحة . بيد أن خبري سرعان ما تناقلته عشرات من ألسنة الأقارب ، وكان أن رأتني ذات الثوب الأزرق ذات مساء جالساً . . .

ـ أم م . .

ـ رأتني مساء الـ . . لا أدري بالضبط ، كان ذلك قبل أيام . كنت جالساً على أريكة مقهى لا تبعد عن بيتها غير خطوات . لم أتوقع رؤيتها لي . . .

ـ أم م . .

ـ ها أنا أختصر! . . مرت من أمامي ، وحيتني دون أن أراها . أشارت لي ، صديق إلى جانبي لكزني . لم أبغ الذهاب . أخيراً ذهبت . هي لم تصافحني . . « فقدت امتيازات كثيرة! » فعدت أدراجي تا . . .

ـ أم م . .

ـ صه! . . تركتها واقفة . عادت لبيتها . قالت لأهلها . . ـ« أنا ذاهبة لبيت خالتي . » ثم جاءت إلى ، أخذتني بالقوة .

ـ بالقوة!!

كان الجالس قد رفع يده كي يمسح أنفه ، مما سمح للضابط بالسؤال .

ـ نعم بالقوة .

وسارع لاغلاق الفم ، ثم استطرد :

ـ قادتني إلى سينما الرافدين . . أحد أفلام شارلي شابلن . . .

ـ أم م . .

ـ شارلي شابلن .

ـ أم م . .

ـ ما بك ؟!

ورفع يده فجاءه الجواب بصوت لاهث :

ـ كدت أموت! . . الهواء الذي يدخل أنفي لا يكاد يفي .

ـ حسناً سأرفع يدي . . على ألا تتكلم!

ـ أم م . .

ـ لا تطلق أصواتاً غريبة! . . في السينما طالبتني بايضاحات معينة . وضحت لها بعد الحاح ، ولست أدري أي شيطان . . .

فقاطعه الضابط بقوله :

ـ لكنك لا تعتقد بالشياطين!!

ـ أهذا ما اتفقنا عليه ؟! . . إليك تعبيراً آخر . . ولست أدري أية قوة شيطانية اغرتني بحشرها ضمن قضيتي . قلت لها . . ـ «أنا أحبك . . حبك هو السبب .» هي دهشت ، غضبت ، وضحكت أنا . . «ليس لدي ما أحرص عليه .» أخيراً أخذت رأسي . . كانت تقول . . ـ « أنت بحاجة للتنفيس عن حزنك . . بحاجة إلى الصدر الذي تبكي عليه! »

ـ وبكيت ؟

سأله الضابط فأجاب :

ـ لا . وانما سرت قدما في الخطة الشيطانية التي ما رسمتها بتعمد . بدأت تقبلني . .

ـ يا لك من محظوظ!

ـ اخرس!

ـ خرست .

ـ قلت لها . . ـ «أنت مجنونة!» فأجابت . . ـ «وأنت أحب مجنون على

الأرض .» قلت لها . . ـ « لا تربطي مصيرك بمصير مجنون أخرق!» قالت . .
ـ« يسرني أن أفعل .» قلت لها . .

فقاطعه الضابط بضيق :

ـ وبعد ؟

ـ خرجنا من السينما . عناقها وقبلاتها انستني واقعي وماضيي ومستقبلي . كنت أعيش لحظتي فقط ، قالت : ـ « أبدنا هو هذه اللحظة .» الساعة تشير إلى العاشرة . الطرقات شبه مقفرة . قادتني إلى طريق يقع إلى جانب نهر العشار . سرنا طويلاً ويدها تشبك يدي . .

ـ وبعد ؟

ـ وصلنا جسراً . . عبرناه . ثم سرنا بالطريق شبه المهجورة . . المؤدية إلى محطة قطار البصرة القديمة . .

ـ لماذا اخترتما تلك الطريق الموحشة ؟

ـ لا أدري . كانت تتوسل بي للعدول عن السفر إلى ايران ، وكان صوتي يعلو بعض الأحيان ، لعلها . . .

فقاطعه الضابط :

ـ أرادت تحاشي فضول الآخرين . . أو . . . لا بأس وبعد ؟

ـ كانت تصر بقولها... ـ « لن أعود إلى البيت إلا بعد أن تعدني بالعدول عن الهرب الى ايران!» أجبتها... ـ « لا أستطيع وعدك .» توقفت عن السير كنا قد حاذينا القاطرات الحديدية الصدئة... ـ« أرجوك!... أتوسل إليك!» أنا بقيت على إصراري... ـ « لا »... ـ « من أجلي!... أنا أحبك!» فأجبتها . . ـ « وأنا أحبك . . لكني سأذهب .» أمسكت برأسي ، قبلتني بقوة . . ـ « أرجوك!» بدأ الدم يغلي في جسدي . . ـ « من أجلك أثور على العالم ، ولكن ليس على قراري الأخير!» عادت تقبلني بأشد . . ـ « أنا أحبك!» وبكت... ـ « لا تفسدي جمالك بالبكاء!» جففت دموعها . . ـ« سأكون كلي لك إن لم تذهب!» . .

ـ سأذهب . . أليس هذا ما قلته لها ؟

سأله الضابط فأجاب :

ـ بلى .

ـ مجرم!

ـ وحقير .

ـ بدأت تتكلم الصدق!

ـ اخرس . طوقتني بذراعيها . . ـ «لن تذهب!!» مررت بأصابعي على ظهرها . كان طيعاً ناعماً . طويت يدي اليمنى تحت أبطها ، وقعت على بعض نهدها . . ـ «لن تذهب!!» يدي الأخرى انحدرت أكثر . اصطدمت بباليتها . كانت مكتنزة . . ناعمة . . دارت الدنيا في عيني . . ـ «لن تذهب!» فأجبتها . . ـ «لا أدري .» . .

ـ حقير!

تمتم الضابط فرد عليه الآخر :

ـ لا تكن انساناً!!

ـ أنت كذبت عليها!

ـ لم أكن أعرف ما أقول . كنت فاقداً لقدرتي على التفكير .

ـ وبعد ؟

ـ لا شيء .

ـ تكلم!

ـ ألا يمكن أن تموت!!

ـ أمن أجل ألا أفضحك ؟!

أطلق زفرة .

ـ لم أكن أعرف ما أقول . هي . . هي أرادت انتشالي . . أرادت خلقي من جديد . . هي مجنونة!

ـ وأنت!

ـ . . .

ـ أنت العاقل . . المجرم . . المنافق!

ـ هي سمحت لي . لم تمنع يدي عندما مزقت ثوبها الصغير الذي يضم اليتها!

ـ حقير! . . أنت خدعتها . . كانت تريد الحفاظ عليك بأي ثمن!

ـ لم تمنع يدي . . لو أنها منعت يدي!!

ـ وضعت لنفسهانهاية من أجل أن تبدأ بك .

ـ ولم تمانع عندما ملت بجسدها على القاطرة . . .

ـ كانت تؤمن بك .

ـ ولم تصرخ! . . لم تصرخ!!

ثم انتفض جسده . ما عاد يستطيع المقاومة . لم يدهش من نفسه ، وانخرط في البكاء .

ـ أنت تبكي!!

ـ لا أدري . . لا أدري!

فعاد الضابط يقول :

ـ يمكنك أن تبدأ من جديد . . الآن . أنت لم تنته قبل أيام . الآن انتهيت ، فأبدأ من حيث انتهيت .

ـ هي لم تصرخ . . فقط عضت على شفتها . . كانت عذراء!

ـ عضت على شفتها . . كما حاولت أن تعض عليك .

ـ تنبهت حواسي وهي تتمسك بكتفي مخافة السقوط . كان الدم يلوثني . . ـ «لن تذهب!» ثم بكت . أمسكت بيدها بعد دقائق . كانت تسير منفرجة الساقين مثل . . مثل . . شارلي شابلن . أوصلتها قريباً من المنزل . ـ «سأراك غداً . . أليس كذلك ؟» لم أجب فاستطردت . . ـ «ستبقى من أجلي!!» فأطلقتها من فمي غريبة على سمعي ، كنت أكذب . . ـ« نعم . . نعم . . يا حبيبتي» تطلعت إلي بريبة ، فنكست رأسي إلى الأرض ، وما أن توارت وراء الباب حتى تهالكت على الأرض . ثم سكت ، فسأله الضابط :

ـ وبعد ؟
ـ تقيأت .
ـ تقيأت انسانيتك!
ـ كل الذي أدريه . . أني ازددت اصراراً على الهرب إلى ايران .
ـ كنت لم تنته بعد .
ـ أتدري بأني رأيتها البارحة ؟
ـ البارحة!
ـ في الحلم ، كانت كإحدى بطلات نجيب محفوظ... مكتنزة لحماً ، وفي مخفر من مخافر الشرطة . كان جسدها يقطر دماً من جميع أجزائه . سألت أحد رجال الأمن... ـ «مابها ؟» فأجابني زاجراً... ـ «اتتظاهر بالغباء!... هي ضحيتك .» وددت لو . . .
وكف فجأة . رأس الضابط كادت تسقط عن فخذه . تصاحب ذلك رجفة قوية انتابت الجسد الممدد .
ـ مابك ؟
ـ اسمعني قرارك قبل أن أموت . . هل ستعود إليها ؟
ـ لن تموت .
ـ دعك من الهراء . . ستعود أم لا ؟
ـ لا أدري!
ـ أنت لاتزال حائراً!!
ـ . . .
ـ أحس جفافاً في فمي . . أريد ماء!
التقط الحذاء وخرج . اقترب من الماء فآنسه نقيق الضفادع .
ـ لا أدري!!

●●

ـ كم هي الساعة الآن ؟

أظنها منتصف الليل .

- لا أريد ماء .

- هذا حسن .

- سأموت قبل الفجر!

- هذا غير حسن .

- لا تنافقني!

- لم أفعل .

- هل ستدفنني ؟

- لا .

- عليك اللعنة!

- وعليها .

- لازالت . . .

ثم انتابه سعال حاد ، ولما التقط انفاسه قال :

- لا بد أن تعود إليها!

- . . .

- سأتنازل لك عن دفني ولكن بشرط .

- دعك من الشروط . . علي أن أعود . .

شاعت ابتسامة في وجه الضابط ، وتساءل فرحاً :

- حقاً!! . . متى ؟

- ليس قبل أن تموت أنت!

أفلتت ضحكة واهنة من فم الضابط ، بينمارفع الآخر عينه إلى سقف الكوخ . ثم أطبق جفنيه . ومن خلالهما كان شارلي شابلن يضع يده في يد المتشردة ، ويسيران معاً عبر طريق سماؤها زرقاء غنية الأضواء . وبلا وعي منه افترت شفتاه عن ابتسامة .

. . . . وفي رواية « كانت السماء زرقاء » يتبدى اقتدار الكاتب الذي يوشك أن يكون عفوياً على استغلال منطق التداعي ، وعلى جدل حبلي الماضي والحاضر في حبل واحد .

وأخيراً فإن هذه الرواية من أهم الروايات التي صدرت في أدبنا العربي حتى الآن .

وهي لن تمتع القارىء المتعجل كثيراً ، ولكنها بلا شك ستزعج القارىء المخلص الرصين وتدفعه إلى التفكير ، بل وتصبح ثقلاً على ضميره ، يظل هذا الثقل حتى يستطيع شرقنا العربي أن يتجاوز آفاقه المعتمة إلى آفاق أكثر نوراً واشراقاً وحرية ونظافة .

إن الكاتب الذي كان يكتب ليمتع الناس عليه الآن أن يكتب ليهزهم ويزعجهم .

وهذه الرواية هي احدى علائم التحول الكبيرة الواضحة .

صلاح عبد الصبور

تمت

22/6/2017

Telegram: @Arab_books